سلسلة التفسير الأصوليّ

الكتاب الخامس

زاد الربّانيِّين

د. محمد بن بشر القباطي

mhmdalqbty1@gmail.com

1442هـ-2021م

كوالالمبور

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة:

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على سيّد المرسلين، ربّي اشرح لي صدري ويسّر لي أمري، اللهمّ علّمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علّمتنا، وزدنا علمّا، وبعد، فهذه سبع آيات من كتاب الله تعالى كفيلة بحفظ ما أسبغ الله تعالى عليك به من النعم وزيادتها، وتحصينك من النقم، وملء حياتك حبورًا ونورًا!

وإن للحياة مع الله تعالى لحلاوة، وإن عليها لطلاوة، وإن أعلاها لمثمر، وإن أسفلها لمغدق! والحياة مع الله تعالى لا تعزلك عن واقعك؛ لتهيم في الوديان، أو تنقطع في جنّة بربوة، أو تجمح إلى المغارات، والمدّخلات، أو تتيه في الفلوات، كلّا! بل تسير بصاحبها تقيًّا نقيًّا، ناصحًا مصلحًا، منكرًا للمنكرات، مسارعًا في الخيرات، مجاهدًا في سبيل الله تعالى، لا يخاف في الله لومة لائم؛ لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى.

ولقد لقّنت العالمَ جائحةُ "كورونا" دروسًا بليغة في حسن التعامل مع أقدار الله تعالى، ولا تزال!

وفي صناعة سفينة نوح عليه السلام، وخطّة يوسف عليه السلام في مواجهة السنين العجاف، وفي الإعداد للهجرة النبويّة، وحفر الخندق لحجز العدوّ، وغيرها من الأدلّة الآمرة بإعداد القوة، وأخذ الحذر،

وجلب النفع والخير، ودفع الضرر والسوء دلالة على وجوب الاستعداد لدفع المصائب والشدائد والأزمات، فالجوع يطرد بالزاد، وخوف العدو يزال بإعداد القوّة، وحسن الاستعداد، وما أنزل الله من داء إلا وأنزل له دواء، فالواجب العمل بأحسن البرامج؛ لكي نجلب المصالح، وندفع الشرور، ونخفّف الأضرار.

شكا شاكٍ، وقد كادت الهموم تشتت شمله، وتمزّق عقله، فأخذ ينثر بين يديّه جَعبة المصائب التي حلّت به، وأذهبت البهجة من حياته، وفرّقت بينه وبين أهله ودياره، وألقته غريبًا، وأقعدته كئيبًا، أزاح الستر عن نافذة قلبه، ويا لَهول المطلع! فما ثَمّ إلا أودية الذكريات قد سالت حميمًا، وحادثات لها شهيق وزفير، كأنه في بحرّ عذابٍ لجيّ يغشاه غمّ من فوقه غمّ، فهو كظيم.

ألقيت إليه بحبل موعظة، وعروة هدى وبشرى قائلًا: هاك سبع آيات هنّ أُمّ العلاج لمُصابك! ألقيت عليه من معانيها سطورًا، فادّكر، واسترجع، فارتدّ بصيرًا.

وقد وَقَرَ في قلبي أن أخصّها بما فتح الله لي فيها، وأنشرها للمؤمنين، لتروي غليلًا، وتشفي عليلًا، فإني ما تدبّرت هذه الآيات السبع، إلا أحسست بروحها تسري في بصيرتي، فإذا قلبي طائر يتغنّى بمعاني الآيات، فلا تسلْ كيف يتغنّى القلب بمعاني الكتاب، فما لوصف

احتفائه بجمال المعاني وجلالها من سبيل! وما إن ينزل القلب نُزلَه من آية في ظلٍّ ممدود، وعيون جارية، وقطوفٍ دانية؛ حتى تستلِمَه أخرى، ولكلّ آية جلالها، وجمالها، وطيبها، وحلاوتها، وأنسها، فيظل القلب ناعمًا في جنات لا يبغي عنها حولًا.

وأسأل الله تعالى القبول والعفو والعافية لي ولجميع المسلمين. والله المستعان والهادي إلى الصواب.

د. محمد عبده محمد بشر القباطي.

كوالالمبور.

11/6 /1442هـ

المطلب الأول: الذكر والشكر:

قال الله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[1].

لبيك ربّنا وسعديك، والخير كلّه بيديك، لا نحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك، ها هو ربُّنا عزّ وجلّ يفتح لنا بابًا عظيمًا كريمًا من أبواب فضله، يدعونا لندخل عليه من غير واسطة ولا حجاب؛ لننال من جلال قربه، وكمال حبّه، وجزيل لطفه، وجميل أنسه بغير حساب، ترى كيف تلقّى هذه الآية قلب رسول الله حين ألقاها عليه جبريل عليهما الصلاة والسلام! وكيف كانت حفاوة المؤمنين بها؟ وإني كلما أمعنت النظر في هذه الآية أدهشتني كرائم الكنوز المعروضة، وهالتني غفلة قلوبنا المعرضة! فما أعظم العرض! وما أشقى المعرضين! وإنّ أكثر الناس إذا ذُكِّروا لا يذكرون، ولا يشكرون، وإذا بُصِّروا لا يبصرون، وإذا صُبِّروا لا يصبرون.

وأودّ أن أذكر بين يدي تفسير الآية حديثًا عظيمًا ما قرأته إلا فاض القلب محبّة وشوقًا وتسليمًا لرسول الله عليه الصلاة والسلام، فعَن معَاذ بن جبل أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم أَخَذَ بِيَدِهِ يَوْمًا فَقَالَ: "يَا مُعَاذُ إِنِّي وَاللَّهِ لَأُحِبُّكَ"، فَقَالَ مُعَاذٌ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَنَا وَاللَّهِ أُحِبُّكَ فَقَالَ: "أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدَعْ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ"، وَأَوْصَى بِذَلِكَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ الصُّنَابِحِيَّ، وَأَوْصَى بِذَلِكَ الصُّنَابِحِيُّ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَأَوْصَى بِهِ

[1] سورة البقرة آية (151-152)

أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ عقبة بن مسلم"[2]. وهذا الدعاء من جوامع الدعاء، وقد تسلسل نقل هذا الحديث بالمحبّة حتى عصرنا هذا؛ ليعلم الناس مكانة السُّنّة، وقدر عناية العلماء بها، وفضلها في إصلاح العباد. ومن لطائف الأقدار أني لما تدبَّرت هذا الحديث، وعشت الحادثة بحذافيرها، ووضعت الحديث في هذا السياق، أرسل إليّ أحد الأحبّة رسالة حديثةَ عهدٍ بطيبة –زادها الله شرّفًا وعزًّا– فقال صاحبي: طرأت لي سفرة إلى المملكة، وأنا الآن في المدينة شرّفها الله تعالى، فتراءت لي طيبة رأي العين –صلى الله وسلم على صاحبها وأصحابه، وطيب الله ساكنيها– ففاضت عيناي، وأشرقت جنبات الروح بذكر الله تعالى، والصلاة والتسليم على خليله ومصطفاه.

والآية هادية إلى السنن الشرعيّة الجامعة ترغيبًا في استباق الخيرات، وتحصيل الدرجات، وتكثير النعم، وترهيبًا من النسيان والكفران، ونزول النقم، ففي هذه الآية وفق ميزان السياق أربع من أصول السُّنن الشرعيّة، وهي:

السُّنة الأولى: سُنّة ذكر الله تعالى، قال الله تعالى: "فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ".

سياحة القلوب في عالم الأذكار:

وما ينطلق قلب في حدائق ذكر الله ويستبق إلا سقطت عن عينه الغشاوة، فيرى ما يُحيِّر الأبصار من الآيات والأسرار، وينكشف الوقر

[2] رواه أحمد، ح 22172، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح غير عقبة بن مسلم، وأبو داوود ح 1524، وصحّحه الألباني.

عـن سمعـه، فيسـمع مـا لم يكـن يسـمع، فتظهـر لـه الأشـياء علـى حقيقتهـا، ويبصـر مـا في بطـون الحـوادث مـن الآيات والعبر، فيـذوق مـن حـلاوة ذكـر الله مـا لا سـبيل إلى وصـفه، ويريـه الله تعـالى مـن أقـداره النازلـة مـن السـماء، ومـا يعـرج فيهـا، ومـا يخـرج من الأرض، ومـا يلـج فيهـا، فـإذا رقّ القلـب وصـفا، عـلا بـه؛ "فتفـتح لـه أبـواب السـماء، فيجـول في اقطارهـا وملكوتهـا وبـين ملائكتهـا، ثم يفـتح لـه باب بعـد باب؛ حـتى ينتهـي بـه سـير القلـب إلى عــرش الــرحمن، فينظــر ســعته وعظمتــه وجلالــه ومجــده ورفعتــه، ويــرى الســموات الســبع والارضــين الســبع بالنســبة إليــه كحلقــه ملقــاة بأرض فــلاة، ويــرى الملائكــة حــافّين مــن حولــه، لهــم زجــل بالتســبيح والتحميــد والتقــديس والتكبــير، والأمــر ينــزل مــن فوقــه بتــدبير الممالــك والجنــود الــتي لا يعلمهــا الا ربهــا ومليكهــا، فينــزل الأمــر بإحيــاء قــوم وإماتــة آخــرين، وإعــزاز قــوم وإذلال آخــرين، وإســعاد قــوم وشــقاوة آخــرين، وإنشــاء ملــك وســلب ملــك، وتحويــل نعمــة مــن محــلّ إلى محــلّ، وقضــاء الحاجــات علــى اختلافهــا وتباينهــا وكثرتهــا مــن جــبر كســير، وإغنــاء فقــير، وشــفاء مــريض، وتفــريج كــرب، ومغفــرة ذنــب، وكشــف ضــرّ، ونصــر مظلــوم، وهدايــة حــيران، وتعلــيم جاهــل، ورد آبــق، وأمــان خــائف، وإجــارة مســتجير، ومــدد لضــعيف، وإغاثــة الملهــوف، وإعانــة لعــاجز، وانتقــام مــن ظــالم، وكــفّ العـدوان، فهـي مراسـيم دائـرة بـين العـدل والفضـل، والحكمـة والرحمـة، تنفـذ في أقطـار العـوالم، لا يشـغله سمـع شـيء منهـا عـن سمـع غـيره، ولا تغلطـه كثـرة المسـائل والحـوائج علـى اختلافهـا وتباينهـا واتحـاد وقتهـا، ولا يتـبرم بإلحـاح الملحـين ولا تـنقص ذرة مـن خزائنـه، لا إلـه إلا هـو العزيـز الحكـيم، فحينئـذ يقـوم القلـب بـين يـدي الـرحمن مطرقًـا لهيبتـه خاشـعًا لعظمتـه، عانيّـا لعزتـه،

فيسجد بين يدي الملك الحق المبين سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم المزيد، فهذا سفرُ القلب، وهو في وطنه وداره ومحلّ ملكه، وهذا من أعظم آيات الله وعجائب صنعه، فيا له من سفر! ما أبركه وأروحه! وأعظم ثمرته وربحه! وأجل منفعته وأحسن عاقبته! سفر هو حياة الأرواح، ومفتاح السعادة، وغنيمة العقول والألباب، لا كالسفر الذي هو قطعة من العذاب"[3]. وكم من قائمٍ آناء الليل يرجو رحمة ربّه، ويخشى عذابه، يُصرِّف القرآنُ قلبَه، فهو سابح في السماء، سائح في جنّات عدن حينًا، فيرى ويسمع، وينعم، ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[4].

أصناف الذكر، وسادةُ الذاكرين:

وذكر الله تعالى منه الواجب، ومنه المندوب، فالأمر: "فَاذْكُرُونِي" للوجوب حقيقة وللندب مجازًا، فالله تعالى يأمر عباده بذكره؛ ليجازيهم بذكرهم إياه ذكرًا خيرًا منه، فذكره إياهم أكبر، وأنفع لهم، وأصلح في الدنيا والآخرة، وذكر الله رُوح تحيي القلوب، ونورٌ يضيء السُّبل، ونعيمٌ يزيل الضَّنْك، ويذهب الشقاء، وأحسنُ الأمّةِ ذكرًا لله تعالى، وأسعدُهم به هو الرسول محمّد عليه الصلاة والسلام وأصحابه، وقد جزاهم الله أحسن الجزاء، فأكرمهم، ونعّمهم، ورفع ذكرهم، واستخلفهم في الأرض، ومكَّن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وأبدلهم من بعد خوفهم أمنًا.

[3] ابن القيّم، محمد بن أبي بكر، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، دار الكتب العلمية– بيروت، ج1/ 202

[4] سورة الأعراف آية (47)

أثر الذكر في حياة الناس: وما من عبد يلزم ذكر الله تعالى إلا وجد الله تعالى عنده، ففتح له بركات من السماء والأرض، وتساقطت الهموم من فوق قلبه، وذابت مخاوفه كما يذوب الملح في الماء، وانقشعت عنه ظلمات الأحزان، واتسعت له السُّبل، فطابت نفسه، وحسن خلقه، وانشرح صدره، وكساه الله ثوب العافية، فقوي بدنه، واستغنى عن زيارة الأطباء، وأخذ الدواء، ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[5]. ومن كثُر ذِكْره لله، كثُر برُّه، وغزُر علمه، واتسع حلمه، وغفرت آثامه، ورفعت أعلامه، وحسن كلامه، وقلّ ملامه، وطابت أيامه، واستغنى بصحبة القرآن والسُّنّة، وجعلت قرّة عينه في الصلاة، ودنت منه الجنة، وتدلّت إليه قطوفها، فأنس بحورها، وحبورها، وثمارها، وأنهارها، وظلها الممدود، فنعم الورد المورود، ورأى دركات أهل النار، فاستعاذ، ونفر من الفتن والخطايا، وترك السفساف، وانشغل بالأشراف، ففرّ إلى الله تعالى، واتقى، فارتقى، وأنشأه الله خلقًا آخر، فجعله مباركًا أينما حلّ، فتبارك الله ربّ العلمين.

أثر الذكر في الآخرة: ذكر الله تعالى سبب من أعظم أسباب الفلاح، والفوز بالجنّة، والنجاة من النار، قال الله تعالى: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[6]. وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم؟ وأرفعها في درجاتكم؟ وخير لكم من إنفاق الذهب والورق؟ وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم

---

[5] سورة الرعد آية (28)

[6] سورة الأحزاب آية (35)

ويضربوا أعناقكم؟ " قالوا: بلى، قال: "ذكر الله"، فقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: ما شيء أنجى من عذاب الله من ذكر الله"[7].

السُّنة الثانية: سُنّة نسيان ذكر الله، فلا تنسوا الله فينساكم، وهذه السنة مستنبطة من مفهوم المخالفة في قوله تعالى: "فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ"، فمفهومها: إن لم تذكروني، لم أذكركم. وقد ذكر الله تعالى هذه السنّة في مواطن من كتابه، كقول الله تعالى: ﴿نَسُواْ اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾[8]، وعاقبة نسيان الله تعالى وخيمة أليمة، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾[9].

ولمّا غفلنا عن ذكر الله تعالى إلا قليلًا، ونسينا، وأعرض فريق عريض عن ذكر الله تعالى، وذكره فريق بخلاف ما شرع، وأخلد من أخلد إلى الأرض، فاتنا الجزاء الحسن، ونزل بنا ما نزل، وحلّ بنا ما حلّ، وما نسي عبد ذكر ربّه، فأعرض إلا احتوشته الفتن، وأحاطت به المخاوف والأحزان، وكثرت أسقامه، وتعاظمت آلامه، واجتالته الشياطين، فاستحوذت عليه، فخبُثت نفسه، وضاقت عليه الأرض بما رحبت، وأذاقه الله مرارة الحياة وعذابها أضعافًا مضاعفة، والعبدُ يُبتلى ويصيبه الضَّنْكُ على قدر إعراضه، فمن عَظُمت غفلته عَظُمَ ضنْكُه، وله في الآخرة عذاب أليم، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ

---

[7] سنن الترمذي ح 3377، وصحّحه الألباني.

[8] سورة التوبة آية (67)

[9] سورة الأنعام آية (44)

مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾[10]. ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾[11].

السُّنة الثالثة، والرابعة: سُنّة الشكر، وسُنّة الكفران، قال الله تعالى: "وَاشْكُرُوا لِي، وَلَا تَكْفُرُونِ"، الأمر للوجوب، والنهي للتحريم، وقد بان لي من ميزان السياق أنهما سنتان؛ لأن الله تعالى قد أورد سُنَّةَ الذِّكْرِ بصيغة الطلب والجزاء، في قوله تعالى: "فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ"، ودلّنا بالمفهوم على السنّة المقابلة لها (سُنّة جزاء النسيان)، وأما سنّة الشكر فقد نصّ على الطلب، ولم يذكر الجزاء، وصرّح بالطلب في السُّنة المضادة لها (سُنّة جزاء الكفران)، فترجّح لي أن الغاية من الآية بيان هاتين السُّنتين طلبًا وجزاءً، واستدللت لهذا بقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[12]، وأستأنسُ بقول الإمام الطبريّ: "ولكن اشكروا لي عليها، وأزيدكم فأتمم نعمتي عليكم، وأهديكم لما هديت له من رَضيت عنه من عبادي، فإنّي وعدت خلقي أنّ من شكر لي زدته، ومن كفرني حَرمته وسلبته ما أعطيتُه"[13].

كثرة النعم توجب الشكر الكثير:

---

[10] سورة طه آية (124)

[11] سورة الجنّ آية (17)

[12] سورة إبراهيم آية (7)

[13] الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر مؤسسة الرسالة الأولى، 1420 هـ - 2000 م ج212/3

أخـذت ذات ليلـة قبـل بضـع سـنين أتـدبّر قـول الله تعـالى: ﴿وَإِن تَعُـدُّواْ نِعْمَـةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُـوهَا﴾[14]، فقلـت لنفسـي: يا ابـن أمّ، ألا جرّبـت أن تعـدّ نِعَـم الله الـتي تتنـزّل في سـاعة واحـدة عليـك، أتـدري مـا الـنعم الـتي تحتـاج إليهـا؛ لتبقـى معـافىً في بـدنك، آمنًـا في سـربك لمـدة سـاعة فقـط؟ قسّـمت النعم الكلية التي أفتقر إليها إلى أقسام:

القسـم الأول: الـنعم الحاضـنة، وهـي كـلّ مـا أحتـاج إليـه ممّـا يحـيط بي، ووجدت أن من أهمها:

-اسـتقرار السـماوات والأرض؛ حـتى لا تـزولا، فتميـد بي الأرض، أو تقـع السـماء عليهـا، فنظـرت في الأسـباب الـتي أحتـاج إليهـا؛ لتسـتقرّ السـماوات فـلا تقـع علـى الأرض، ولا تميـد بيَ الأرض، فـإذا هـي كثـيرة لا تحصـى؛ فأعـدت النظـر كـرّتين، فانقلـب إلي خاشـعًا وهـو حسـير، فلـئن اجتمـع الخلـق كلّهـم مـا اسـتطاعوا علـى ذلـك، فتـذكّرت قولـه تعـالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِـكُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَـزُولَا وَلَـئِنْ زَالَتَـا إِنْ أَمْسَـكَهُمَا مِـنْ أَحَـدٍ مِـنْ بَعْـدِهِ إِنَّـهُ كَـانَ حَلِيمًـا غَفُـورًا﴾[15]، والفعـل المضـارع: "يُمْسِـكُ" يـدلّ علـى تجـدّد افتقـار السـماوات والأرض إلى مـن يمسـكهما، ولـو تركتـا لزالتـا في طرفـة عـين! وكـذلك حـال الشـمس في فلكهـا، فلـو اقتربـت لأحرقتنـا، ولـو ابتعـدت لتجمّـدنا مـن شـدة الـبرد، وهـا أنا أقـف علـى جلـد الأرض،

[14] سورة إبراهيم آية (34)

[15] سورة فاطر آية (41)

وهو قشرة رقيقة تحتها نار تلظّى، من يمسكها فلا تفور براكينها، ولا تتزلزل؟ إنه الله تعالى!

ثمّ الشرور والأخطار التي تنتشر حولي بسبب بشريّ أو حيواني، ممّا لا يعلمه إلا الله تعالى، وما كورونا –حفظنا الله وإياكم– عنّا ببعيد! من يدفعها عنّي؟

القسم الثاني: هي النعم الواقعة في نفسي، قلت: وأول النعم الكبرى لإبقاء الجسد حيًّا هو استقرار الروح في الجسد، ثمّ قلت: كيف؟ والله يتوفّاها كلّ ليلة ثمّ يرسلها، ويردّها علي. ترى من يرجعها "إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ"؟ وأما حاجة البدن إلى الماء، والغذاء، وعمل الأجهزة، وغيرها فلا تحصى!

القسم الثالث: النعم الروحيّة –صلتي بالله– التي تجعلني سعيدًا مطمئنًا، ولا أُلقي بنفسي في المهالك. فأيقنت أني لو جمعت كلّ حاسوب، وكلّ آلة حاسبة في الأرض لما أحصيت نعم الله علي. ربّاه! عفوك ومغفرتك! لك الحمد؛ حتى ترضى.

فقلت: أيها العبد الضعيف، ما أشدّ افتقارك إلى رحمة ربّك! هلّا أحسنت ذكر ربّك جلّ ثناؤه وتقدّست أسماؤه، وأحسنت شكره، وعبادته... "وأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ". وانظر سيئات أعمالك، فتخلّص منها بالتي هي أحسن، وأبشر، فإن الله يعطي، ويضاعف أضعافًا كثيرة، ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾.

عاقبة الكفران: قال الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[16]، وسوف أسوق لكم في جزاء كفران النعم قصّة من بلدي الطيب أرض سبأ، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ * وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ * فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[17]، لقد ذهب سيل العرم بالجنتين، وتفرّق الناس في البلاد، واليوم تتجدّد الآية في اليمن كلّه، فقد مزّقتنا الحرب كلّ ممزّق، ومسّ تلك الديار طائف من عذاب الخوف والجوع، فهل من مدّكر؟ والحديث ذو شجون! والمخرج قريب منّا كحبل الوريد، ألا وهو التوبة من خطيئة الإعراض، وذلك بالاستجابة والإقبال على ما دعانا الله تعالى إليه. وبركات القرآن الكريم كوثر غير ممنون. أرأيت كيف تنفذ كلماته إلى القلوب فتصبغها بصبغة الرحمة والحكمة، وتؤلف بينها، وتذهب عنها رجز الشيطان، وفتنته، فتستقرّ القلوب على أريكة المحبّة وبين يديها يمتدّ أفق الرجاء الواسع!

---

[16] سورة إبراهيم آية (7)

[17] سورة سبأ آية (15-19)

المطلب الثاني: اسْتَعِينُوا الصبر والصلاة

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[18].

من لطف الله تعالى بالمؤمنين تنزيلُ القرآن الكريم منجّمًا؛ ليهديهم إلى أقوم السُّبل، ويبصِّرهم بما يحتاجون إليه بالتدريج، ومن عادة القرآن الكريم أنّه إذا ذكر شرًّا أو سوءً، أو فتنة أو مصيبة أو مشكلة أتبعها بذكر العلاج الأحسن، وبيان المخرج منها، ولم يتركها معلّقة أو كالمعلّقة، فعندما ذكّر الله تعالى المؤمنين بالنِّعم، بيّن الله تعالى لهم أهمّ سنّة لحفظ النّعم وزيادتها، وهي سنّة الشُّكر، ولمّا أراد أن يبصَّرهم بما سيجدونه من الابتلاء، والشدائد، والمصائب، أعلمهم بالسُنّة المعينة على اجتياز أهوال الابتلاء، ومعالجة تلك الشدائد، وتمكّنهم من الفوز والفلاح في الدارين ألا وهي سنّة الصّبر. وهي سنّة معادلة لسُنّة الشكر.

وبعد طواف في جنّات آية الذكر والشكر، ها هي تسلمني بلطف إلى التي تليها؛ فيبادرني نداء ربّي –تقدّست أسماؤه– فيمضي بالقلب إلى حدائق أنس ذات بهجة فيها فرح ونعيم، فيزوّدني بعُدّة وزاد، ويكسوني بلباس الحفظ والعناية والقوّة، ويأخذ بيدي على صراط الصحبة، والاقتراب "إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ"! فتغمر القلبَ ألوانٌ من نعيم الرضوان، والرَوح، والسكينة، والريحان.

[18] سورة البقرة آية (153)

والأمـر بالاسـتعانة بالصـبر والصّـلاة ينبـئ عــن اسـتقبال مرحلـة جديـدة عـــامرة بالطاعـــات العظـــام الجســـام كالجهـــاد، والحـــجّ، مرحلـــة محفوفـــة بالشـدائد، وقـد اقتصـر علـى ذكـر الصـبر والصـلاة؛ لأنهمـا أصـل العـدّة؛ لإحسـان التلقّي، وإتقـان الترقّي في سُـلّم العبوديّـة في جميـع الأحـوال اللّينـة والخشـنة. إن ارتقـاء الأمّـة وتقـدُّمها يوجـب تـوطين الأنفـس وتهيئتهـا لركـوب الأخطـار، وخـوض البحـار؛ فإنّـه لا يقـوى علـى أداء المهمـات الجسـام، وحمـل الأثقـال، وخـوض الشـدائد، واقتحـام العقـاب إلا مـن تـزوّد مـن الصـبر والصـلاة. وهنـا تواثبـت إليّ أسـئلة مـن كـلّ حـدَب! فأخـذت بتلابيـب قلـبي: مـا المـراد بالصـبر؟ ومـا الصـلاة الـتي تحقّـق المقصـود؟ أصـلاتنا هـذه الـتي نؤدّيهـا ونحـن فيهـا غـافلون؟ ألا بيّنـت! أقـول: إن هـذا يطـول شـرحه، ولكـن مـا مـن بيانـه بُـدٌّ، وإني مجيـب إن شـاء الله تعـالى وموجزٌ ما استطعت. أقول: في هذه الآية أصول جامعة، منها:

الأصـل الأول: المنـادي: هـو ربّنـا الـرحيم العلـيم بكـلّ شـيء، فهـو يعلـم قدراتنا، وافتقارنا، وحاجاتنا، وما يضرّنا، وما ينفعنا.

الأصـل الثـاني: المنـادَون: وهـم المؤمنـون، وقـد اخـتصّ ربُّنـا عـزّ وجـلّ المؤمنين بهـذا النـداء الكـريم: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا"، وهـذا هـو النـداء الثـاني في سـورة البقـرة، وقـد تكـرّر في القـرآن الكـريم تسـعين مـرّة[19]، وفي هـذا النـداء تزكيـةٌ للمـؤمنين، وتسـوية بيـنهم، وهـو عـامّ يشـمل كـلّ مـن اتصـف بهـذا الوصـف مـن الرجـال والنسـاء بقطـع النظـر عـن مالـه، وجمالـه، وجاهـه، ولونـه، ونسـبه، ووطنـه، فقـد جمـع شملهـم تحـت لـواء واحـد، فهـم يـدٌ علـى

[19] انظر: الجزائري، جابر بن موسى، نداءات الرحمن لأهل الإيمان، المكتبة العصريّة، بيروت، ط3، 1423هـ، ص7، وقد عدّها الرازيّ في تفسيره ثمانية وثمانين، وتبعه في الخطأ الهرريّ في حدائق الروح والريحان ولم يشر إلى المصدر.

من سواهم، يسير بذمّتهم أدناهم.

الأصل الثالث: جواب النداء: هو البيان الثاني كلُّه (البيان رقم 2)، ويمتدّ من هذه الآية حتى ينتقل إلى خطاب آخر. وأما البيان الأول (رقم: 1) فقد امتدّ من قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[20] إلى هذا الموطن، وقد بيّن الله تعالى فيه أسباب تنصيب الأمّة الوسط الوارثةِ ملّة إبراهيم إمامةً للعالمين، وأسباب تنحية من ينازعهم من اليهود، والنصارى، والمشركين. وسنذكّر من جواب النداء ما ورد في الآية فقط.

الأصل الرابع: الأمر بالاستعانة: "اسْتَعِينُوا" الأمر بالاستعانة للوجوب، فالاستعانة فريضة، والتفريط فيها معصية يؤاخذ عليها العبد. وهي طلب العون، والعون إمدادٌ بالقوة والقدرة؛ لجلب المنافع والمصالح، ودفع الأضرار والمفاسد. والاستعانة بالله تعالى عبادة؛ لأن المستعين مقبل على الله تعالى ممتثلٌ ما أمره الله تعالى به.

الأصل الخامس: المأمورون بالاستعانة: هم المنادَون في صدر الآية وهم المؤمنون، والاستعانة تدلّ على افتقار المستعين إلى الإعانة، وافتقار العباد إلى عون الله تعالى فقرٌ عامٌّ مطلق، فهم ذوو حاجة وافتقار، ونقص وعجز، ولا قيام لحياتهم إلا بعون الله تعالى. والمؤمنون كالعالمين أجمعين فقراءُ إلى الحيّ القيوم، بل هم أعلم الناس بالافتقار إلى الله

---

[20] سورة البقرة آية (104)

تعالى، وبسبل الاستعانة بالله تعالى.

الأصل السادس: المستعان به: الصبر والصلاة قال الله تعالى: "اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ". فقد أمرهم بما يثبّت أقدامهم على الصراط المستقيم؛ لأن المرحلة الجديدة وما يترتّب عليها من الوظائف والمواقف ثقيلة شاقّة، فأرشدهم الله تعالى إلى خير ما يستعان به. وما أشدَّ حاجة من اتبع الحقّ إلى العون للمضيّ قُدُمًا على الصراط المستقيم، ودفع الباطل وأخطاره، وقد دلّهم الله تعالى على الزاد والعتاد.

الأول: الصبر: "الصَّبْرِ": والصبر المشروع هو ركون القلب إلى العليّ العظيم، وتثبيت القَدَم على الصراط المستقيم. "أل" في "الصَّبْرِ": للعموم، فهو يعمّ جميع أنواع الصبر: الصبر على الطاعات، والصبر عن المعاصي والسيئات، والصبر على ما وقع من الأقدار الكونيّة، والصبر على دفع الأقدار الواقعة، والصبر على إعداد ما تُتقى به الأقدار المتوقّعة. وأعلاها رتبة الصبر على الطاعات؛ لأنه صبر على فعل ما يحبّه الله ويرضاه، وأوسطها الصبر عن المعاصي، وهو صبرٌ على ترك ما يبغضه اللهُ تعالى وما يغضبه، وأدناها الصبر على الأقدار الكونيّة، وهو صبر على ما نزل بالعبد من الأقدار، فمن رضي بالقدر فله الرضا، ومن سخط فعليه السخط. قال العلّامة ابن القيّم: "والصَّبْرُ من الإيمان بمنزلة الرأسِ مِنَ الجَسَدِ، وهو ثلاثةُ أنواع: صَبْرٌ على فرائض الله، فلا يُضَيِّعُها، وصبرٌ عن محارمه، فَلا يرتكِبُها، وصبرٌ على أقضيته وأقداره، فلا يتسخَّطُها، ومَن استكمَلَ هذهِ المراتبَ الثلاث، استكمَلَ الصبرَ.

ولـذةُ الـدنيا والآخـرة ونعيمهـا، والفـوزُ والظفـرُ فيهمـا، لا يَصِـل إليـه أحـدٌ إلا علـى جِسْـر الصـبر، كمـا لا يَصِـلُ أحـد إلى الجنَّـةِ إلا علـى الصِّـراطِ، قـال عمـرُ ابـن الخطـاب رضـى الله عنـه: خـيرُ عـيشٍ أدركنـاه بالصَّـبْرِ. وإذا تأملـتَ مراتِـبَ الكمـال المكتسَـب في العـالَم، رأيتَهـا كلهـا مَنُوطـةً بالصَّـبْرِ، وإذا تأملـتَ النُّقصـان الـذي يُـذَمُّ صـاحبُه عليـه، ويـدخُل تحـتَ قُدرتـه، رأيتَـه كلـه مِـن عـدمِ الصـبر، فالشـجاعةُ، والعِفَّـةُ، والجـودُ، والإيثـارُ، كلُّـه صـبرُ ساعة"[21]. وقـد تتبـع رحمـه الله تعـالى مـا للصـابرين مـن كنـوز موضـوعة لا مقطوعـة ولا ممنوعـة، قـال الله تعـالى: ﴿إِنَّمَـا يُـوَفَّى الصَّـابِرُونَ أَجْـرَهُم بِغَـيْرِ حِسَابٍ﴾[22]

– "الصَّـلَاةِ" "أل" للعمـوم، و"الصَّـلَاةِ": حقيقـة شـرعيّة، وهـي فـرائض ونوافـل، وهـي مـن أعظـم مـا يُتقـرّب بـه إلى الله تعـالى، وأنفعهـا في جلـب المصالح ودرء المفاسـد عظيم، وقـد جعـل الله تعـالى أسـبابًا يُتوسّـل بهـا إليـه؛ لتحصـيل عونـه، فمـن اسـتعان بمـا يحبّـه الله تعـالى ويرضـاه، هُـدِيَ وكُفِـيَ وأفلـح، ومـن توسّـل بمـا يُسـخط الله تعـالى أثِمَ وغـرِمَ وخسـر. ولكـن مـا الصـلاة الـتي يسـتعان بهـا؟ مـا الصـلاة الـتي يظهـر أثرهـا علـى العبـاد؛ فتنهاهم عـن الفحشـاء والمنكـر، وتجلـب لهـم الصـلاح والفـلاح، وتفـتح لهـم خـزائن رحمـة الله تعـالى؟ مـا أحوجنـا إلى مـن يـذكِّرنا قبـل كـلّ صـلاة بإحسـان الصـلاة؛ لنصـلي صـلاة مـودّع، وكـم مـن مصـلٍّ حقيـق بأن يقـال لـه عقـب صـلاته: "ارْجِـعْ فَصَـلِّ فَإِنَّـكَ لَمْ تُصَـلِّ"، أقـول: إننـا كثـيرًا مـا نخـرج مـن

---

[21] ابن القيّم، محمد بن أبي بكر، زاد المعاد في هدي خير العباد، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط27، 1415هـ، ج4/ 333

[22] سورة الزمر آية (10)

الصلاة، ونحن لا ندري كيف صلينا، فيذهب علينا جلّ الأجر، فعن عمار عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن العبد لينصرف من صلاته ولم يكتب له منها إلا نصفها إلا ثلثها حتى قال: إلا عشرها"[23]، فإذا أراد العبد أن يصلّي الصلاة النافعة، فليُقِمْها كما علّمنا رسول الله، وفي صلاته عليه الصلاة والسلام أسوة.

قال العلَّامة ابن القيّم: "والصلاة مجلبةٌ للرزق، حافظة للصحة، دافعة للأذى، مطردة للأَدواء، مقوّية للقلب، مبيِّضة للوجه، مُفْرِحةٌ للنفس، مُذهبة للكسل، منشِّطةٌ للجوارح، ممدَّة للقُوَى، شارِحة للصَّدر، مغذِّية للروح، مُنوِّرة للقلب، حافِظةٌ للنعمة، دافعة للنقمة، جالِبة للبركة، مُبعِدة من الشيطان، مُقرّبِة من الرحمن.

وللصلاة تأثيرٌ عجيب في دفع شُرور الدنيا، ولا سِيَّما إذا أُعطيت حقها من التكميل ظاهراً وباطناً، فما استُدْفِعَتْ شرورُ الدُّنيا والآخرة، ولا استُجْلِبَت مصالِحُهُمَا بمثل الصلاة، وسِرُّ ذلك أنَّ الصلاة صِلةٌ باللهِ عَزَّ وجَلَّ، وعلى قدر صِلَةِ العبد بربه عَزَّ وجَلَّ تُفتح عليه من الخيرات أبوابَها، وتُقطعُ عنه من الشرور أسبابَها، وتُفِيضُ عليه موادَ التوفيق مِن ربه عَزَّ وجَلَّ، والعافية والصحة، والغنيمة والغِنى، والراحة والنعيم، والأفراح والمسرَّات، كلها محضرةٌ لديه، ومسارِعةٌ إليه"[24].

وكأين من عابدٍ بكى أسفًا على تفريطه في الصلاة بعد أن علم حقيقة الصلاة وأسرارها، وقد تأمّلت حينًا من الدهر في الصلاة، فأدهشني

---

[23] الطحاويّ، أحمد بن محمد، شرح مشكل الآثار، ت: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط1415هـ، ح 1105، وهذا الحديث حسّنه الألباني، والأرنؤوط.

[24] ابن القيّم، زاد المعاد في هدي خير العباد، مرجع سابق، ج4/ 332 بتصرف يسير.

التوافــق بــين أفعالهــا، وأقوالهــا، وكيــف يتعاضــد فيهــا الجَنــانُ (القلــب) واللســان والأركــان (الجــوارح)، فقسَّــمتُ الصــلاة إلى مقامــات ومنــازل، وأعطيـت كـلّ منزلـة حقّهـا مـن النظـر والتـدبُّر فيمـا يخصّـها مـن الأفعـال والأقــوال المشــروعة، فوجــدتها مليئــة بالأســرار والعجائــب، وتيقنــت أن نــزول العبــد ضــيفًا علــى ربّــه في "الصــلاة" شــيءٌ عظــيم، وبــدأت أجاهــد نفســي في شــهود هــذه المنــازل، وأحاســبها، وســعِدت بالصــلاة وأحسســت بأثرهــا، وكلمــا زاد الإيمــان كــان أثرهــا أعظــم، ثمّ وقــع في يــدي بعــد أمــدٍ كتــابُ "الصــلاة وحكــم تاركهــا" للعلّامــة ابــن القــيّم، فــزادني يقينًــا، وأســفت أن لا يــدرّس مثــل هــذا الكتــاب، وخاصّــة مبحــث: "أســرار الصــلاة"، وقــد نصــحت بــه ذات يــوم بعــض الــدعاة، فــدلّني أحــدهم علــى كتــاب: "أول مــرة أصــلي، وكــان للصــلاة طعــمٌ آخــر" للــدكتور خالــد أبــو شــادي، فوجـدت أنّـه قـد وقـع لـه مـن الدهشـة مـا وقـع لي؛ حـتى إنـه بالـغ فقـال: "أحسســت أني لم أكــن أصــلّي قبــل هــذه الرســالة، وصــرت واقفًــا أصــلي أمـام الكعبـة، وكـأني أصـلي لأول مـرّة"[25]، وقـد استخلصـه مـن كتـاب ابـن القيّم، ورتّبـه وقرّبـه. وأنا أظنّ أنّـه مـا قـرأ أحـدٌ كتـاب ابـن القـيّم إلا اسـتفاق مــن غفلــة، ونــدم علــى مــا فاتــه، فتــاب، وأصــلح صــلاته، وتغــيّرت أحوالــه. وســوف أختصــر مقصــود ابــن القــيّم، وأذكــر مــا تيسّــر مــن أســرار الصــلاة ومقاصــدها وفــق الأركــان الــتي بيّنتهــا السّــنّة أحســن بيــان، ومــن ذلــك مــا ورد في حــديث المســيء صــلاته، فعَــنْ أَبِي هُرَيْــرَةَ: "أَنَّ رَسُــولَ اللهِ صــلى الله عليــه وســلم دَخَــلَ الْمَسْــجِدَ فَــدَخَلَ رَجُــلٌ فَصَــلَّى فَسَــلَّمَ عَلَــى النَّبِيِّ صــلى الله عليــه وســلم فَــرَدَّ وَقَــالَ ارْجِــعْ فَصَــلِّ فَإِنَّــكَ لَمْ تُصَــلِّ فَرَجَــعَ يُصَــلِّي كَمَــا

[25] أبو شادي، خالد، أول مرة أصلي وكان للصلاة طعم آخر، دار الراية، ط4، 2010م، ص12.

صَلَّى ثُمَّ جَاءَ فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ ثَلاَثًا فَقَالَ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا أُحْسِنُ غَيْرَهُ فَعَلِّمْنِي فَقَالَ إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلاَةِ فَكَبِّرْ ثُمَّ اقْرَأْ مَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَعْتَدِلَ قَائِمًا ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا وَافْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلاَتِكَ كُلِّهَا"[26].

وإليك ما تيسّر من أسرار شُّهود المعاني والمباني في أقوال الصلاة وأفعالها:

المشهد الأول: هو قيام العبد بين يدي ربّ العالمين مقبلًا على الله تعالى بقلبه ووجهه، معرضًا عمّا سواه، فكمال اتصال القلب بالخالق يكون على قدر كمال انفصاله عن الخلق، وقد أمرنا الله بالمحافظة على الصلاة والقيام إليها بما تستحقُّه من القنوت والإخبات، فقال الله تعالى: "حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ"، قوله تعالى: "وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ"، يدلّ على وجوب إخلاص القيام لله تعالى وحده، فإذا قام العبد قانتًا لله تعالى أكرمه الله تعالى برحمته، وفضله، وإحسانه، وإكرامه، وإنعامه، وقربه، وأنسه على قدر حضور قلبه وخشوعه؛ حتى يفيض قلب العبد المحسن حبًّا، وخشية، ورجاء، وسكينة، وهدى، ورضا. فمن تهيأ للقاء الله تعالى، وأحبّ لقاء الله تعالى أحبّ الله لقاءه، فإن من أعظم الجفاء أن تقوم إليه، وأنت مشغول عنه غافل! فما قدر الله تعالى حقّ قدره من قام للقاء ربّه، وقلبه معلّقٌ بغيره.

المشهد الثاني: مقام التحريم، "إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلاَةِ فَكَبِّرْ": فإذا قام العبد بين يدي الربّ تبارك وتعالى، فقال الله تعالى أكبر، فقد أسلم

---

[26] رواه البخاريّ ح757، ومسلم ح911.

وجهه لله، وقد امتلأ قلبه بالتكبير والتعظيم والإجلال والتوحيد، ونزل ضيفًا على الله تعالى، فما أعظم المُكرِم! وما أسعد الضيف! فمن أحسَنَ هذا الركن تيسّر له ما بعده، وكان شهود قلبه لأركان الصلاة جليًلا، ووجد الله تعالى عنده، فأكرمه ونعّمه. ومن فاته شهود هذا الركن بما يستحقّه من الخشوع والتعظيم، فاته خير كثير، وأُصيبت صلاته مصابًا عظيمًا.

المشهد الثالث: مقام قراءة القرآن: ويبدأ بالاستعاذة، "فإذا قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فقد عاذ بمعاذ، فلم يضرّه شيء. ثمّ يقرأ الفاتحة: مبتدئًا بالبسملة: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾[27]، والاستفتاح بتسمية الله تعالى مفتاحُ للخير والبركات، مغلاقٌ للشرور والسيئات.

وهي وصيلة تصل المنقطع، وتقوّي صلة المتصل بالله تعالى، فتصل الضعيف بالقويّ، والفقير بالغنيّ الكريم، والمحتاج بالصمد الوهّاب، والعاجز بالقادر، والجاهل بالعليم الحكيم، والمريض بالشافي، والملهوف بالمغيث الكافي.

وهي توثيق متجدّد للصلة بين العبد وربه، ولهج بالثناء على الغنيّ الحميد، قال الإمام الطبريّ: "إن الله تعالى ذكرُه وتقدَّست أسماؤه أدّب نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم بتعليمه تقديمَ ذكر أسمائه الحسنى أمام جميع أفعاله"[28].

والبسملة فضيلة ترفع الدرجات، فهي آية من أعظم سورة، لا تعلم نفس ما أخفي لها من أجرٍ في ذكرها هذه الآيةَ، والاستفتاح بها. إنها

[27] سورة الفاتحة الآية (1)

[28] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج114/1

تجرّد العزم من كلّ شائبة شرك، والبدءُ بها فيه اعتصام بالله تعالى وحده، واطّراح لكل ما يُتوسّل به من دون الله تعالى، وإقرار بالافتقار المطلق إلى معونة الله تعالى. فهي أصل من أصول التعبّد.

والبسملة وسيلة، وهي أعظم مفتاح تستفتح به خزائن الرحمات والبركات والمصالح، وتتقى به الشرور والمفاسد، إنها المفتاح الأعظم للبرّ والتقوى، والعاصم من الإثم والعدوان. وهي سرّ كريم، لا يوفق إلى النطق به إلا ذو حظ عظيم، من نطق بها فقد استمسك بالعروة الوثقى، فهدي ووقيَ وكفي، وهي ذكر شريف، من تركه، محقت بركة نعمه بتركه، وكان عرضة لأسباب هُلْكه، وانقطاع سلكه.

ولقد تضمّنت البسملة سرّ الخلق والأمر، ففي مطلعها ورد الاسم الكريم: "الله" ذو الجلال المطلق المستحقّ لتوحيد العبادة، وقد بيّن الله تعالى هذا الاستحقاق في قوله تعالى: "إياك نعبد". وقد بيّن الرسول عليه الصلاة والسلام ما للعبد إذا قرأ الفاتحة في الصلاة، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأُمِّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ ثَلَاثًا غَيْرُ تَمَامٍ، فَقِيلَ لِأَبِي هُرَيْرَةَ إِنَّا نَكُونُ وَرَاءَ الْإِمَامِ، فَقَالَ اقْرَأْ بِهَا فِي نَفْسِكَ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "قَالَ اللَّهُ تَعَالَى قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قَالَ مَجَّدَنِي عَبْدِي، وَقَالَ مَرَّةً فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قَالَ هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ:

﴿اهْـدِنَا الصِّـرَاطَ الْمُسْـتَقِيمَ * صِـرَاطَ الَّـذِينَ أَنْعَمْـتَ عَلَـيْهِمْ غَـيْرِ الْمَغْضُـوبِ عَلَـيْهِمْ وَلَا الضَّـالِّينَ﴾ قَـالَ هَـذَا لِعَبْـدِي وَلِعَبْـدِي مَـا سَـأَلَ"[29].

قـال ابـن القـيّم: "فيـا لـذة قلبـه، وقـرة عينـه، وسـرور نفسـه بقـول ربّـه: "عبـدي" ثـلاث مـرات، فـوالله، لـولا مـا علـى القلـوب مـن دخـان الشـهوات، وغـيم النفـوس، لاسـتطيرت فرحًـا وسـرورًا بقـول ربهّـا وفاطرهـا ومعبودهـا: حمـدني عبـدي، واثـنى علـي عبـدي، ومجـدني عبـدي، ثم يكـون لقلبـه مجـال مـن شـهود هـذه الأسمـاء الثلاثـة الـتي هـي أصـول الاسمـاء الحسـنى، وهـي الله، والـربّ، والـرحمن، فشـاهد قلبـه مـن ذكـر اسـم الله تبـارك وتعـالى إلهـًا معبـودًا موجـودًا مخوفـًا لا يسـتحق العبـادة غـيره، ولا تنبغـي إلا لـه، قـد عنـت لـه الوجـوه، وخضـعت لـه الموجـودات، وخشـعت له الأصوات، تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن.

وشاهد مـن ذكـر اسمـه رب العلمـين قيومًـا قـام بنفسـه، وقـام بـه كـل شـيء، فهـو قـائم علـى كـل نفـس بخيرهـا وشـرها، قـد اسـتوى علـى عرشـه، وتفـرد بتـدبير ملكـه، فالتـدبير كلّـه بيديـه، ومصـير الأمـور كلّهـا إليـه، فمراسـيم التـدبيرات نازلـة مـن عنـده علـى أيـدي ملائكتـه بالعطـاء، والمنـع، والخفـض، والرفـع، والإحيـاء، والإماتـة، والتوبـة، والعـزل، والقـبض، والبسـط، وكشف الكروب، وإغاثة الملهوفين، وإجابة المضطرين.

ويشـهد عنـد ذكـر اسـم الـرّحمن جـلّ جلالـه ربًّا محسـنًا إلى خلقـه بأنـواع الإحسـان، متحبِّبًـا إلـيهم بصـنوف الـنّعم، وسـع كـلّ شـيء رحمـة وعلمًـا، فوسـعت رحمتـه كـلّ شـيء، ووسـعت نعمتـه كـلّ حـيّ، فبلغـت رحمتـه حيـث بلـغ علمـه، فاسـتوى علـى عرشـه برحمتـه، وخلـق خلقـه برحمتـه، وأنـزل كتبـه

[29] رواه مسلم ح594

برحمته، وأرسل رسله برحمته، وشرع شرائعه برحمته، وخلق الجنة برحمته، والنار أيضًا برحمته؛ فإنها سوطُه الذي يسوق به عباده المؤمنين إلى جنته، ويطهر بها أدران الموحدين من أهل معصيته، وسجنُه الذي يسجن فيه أعداءه من خليقته.

فإذا قال "مالك يوم الدين" شهد المجد الذي لا يليق بسوى الملك الحقّ المبين، فيشهد مَلِكًا قاهرًا قد دانت له الخليقة، وعنت له الوجوه، وذلت لعظمته الجبابرة، وخضع لعزته كلّ عزيز، فيشهد بقلبه مَلِكًا على عرش السماء مهيمنًا، لعزّته تعنو الوجوه، وتسجد.

فإذا قال: "إياك نعبد وإياك نستعين" ففيها سرُّ الخلق والأمر، والدنيا والآخرة، وهي متضمنة لأجل الغايات، وأفضل الوسائل، فأجل الغايات عبوديته، وأفضل الوسائل إعانته، فلا معبود يستحق العبادة إلا هو، ولا معين على عبادته غيره، فعبادته أعلى الغايات، وإعانته أجلّ الوسائل، وقد اشتملت هذه الكلمة على نوعي التوحيد، وهما توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية، وتضمنت التعبد باسم الربّ، واسم الله، فهو يعبد بألوهيته، ويستعان بربوبيته، ويهدي إلى الصراط المستقيم برحمته.

ثم يشهد الداعي بقوله "اهدنا الصراط المستقيم" شدة فاقته وضرورته إلى هذه المسألة التي ليس هو إلى شيء أشد فاقة، وحاجة منه إليها البتة، فإنه محتاج إليه في كل نَفَس وطرفة عين، وهذا المطلوب من هذا الدعاء لا يتمّ إلا بالهدية إلى الطريق الموصل إليه سبحانه، والهداية فيه.

ولما كان العبد مفتقرًا في كل حال إلى هذه الهداية في جميع ما يأتيه ويذره، فرض الله سبحانه عليه أن يسأله هذه الهداية في أفضل أحواله مرات متعددة في اليوم والليلة.

ثم بيَّن أن أهل هذه الهداية هم المختصون بنعمته دون المغضوب عليهم، وهم الذين عرفوا الحقّ ولم يتبعوه، ودون الضالّين وهم الذين عبدوا الله بغير علم، فالطائفتان اشتركتا في القول في خلقه وأمره وأسمائه وصفاته بغير علم، فسبيل المنعم عليه مغايرة لسُبُل أهل الباطل كلّها علمًا وعملًا.

فإذا فرغ من هذا الثناء والدعاء والتوحيد، شرع له أن يطبع على ذلك بطابع من التأمين.

وأفضل أذكار الصلاة ذكر القيام، وأحسن هيئة المصلي هيئة القيام، فخصت بالحمد، والثناء، والمجد، وتلاوة كلام الربّ جلّ جلاله، ولهذا ورد النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود؛ لأنهما حالتا ذلّ وخضوع، وتطامن، وانخفاض؛ ولهذا شرع فيهما من الذكر ما يناسب هيئتهما"[30].

المشهد الرابع: مقام الركوع: عن ابن عباس قال: كشف رسول الله – صلى الله عليه وسلم– الستارة، والناس صفوف خلف أبي بكر، فقال: "أيها الناس إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له، ألا وإني نهيت أن أقرأ القرآن راكعًا أو ساجدًا، فأما الركوع فعظموا فيه الربّ عزّ وجلّ، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء، فقمن أن يستجاب لكم"[31].

المنزل الخامس: الرفع من الركوع:

عن أبي سعيد الخدري قال كان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– إذا

---

[30] ابن القيّم، محمد بن أبي بكر، الصلاة وحكم تاركها، ت: بسام الجابي، دار ابن حزم – قبرص – بيروت، ط1، 1416هـ، ص 202 – 206 بتصرف.

[31] رواه مسلم ح1102

رفع رأسه من الركوع قال: "رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ مِلْءُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمِلْءُ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ، أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ، وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ، اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ "[32].

المشهد السادس: السجود

وفي هذا المنزل يكون العبد أخضع ما يكون، فجازاه الله تعالى بقربه؛ لأن عبادة الله تعالى كرامة وعزّة للعبد، ومن تواضع لله تعالى رفعه، فعن أبي هريرة أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال "أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء"[33]، "وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء فقمن أن يستجاب لكم"[34]. وعن حذيفة قال صليت مع النبيّ –صلى الله عليه وسلم– ذات ليلة فافتتح البقرة فقلت يركع عند المائة. ثم مضى فقلت: يصلي بها في ركعة، فمضى فقلت: يركع بها. ثم افتتح النساء، فقرأها، ثم افتتح آل عمران، فقرأها، يقرأ مترسلًا إذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ، ثم ركع فجعل يقول: "سبحان ربي العظيم". فكان ركوعه نحوًا من قيامه ثم قال "سمع الله لمن حمده". ثم قام طويلًا قريبًا مما ركع، ثم سجد فقال: "سبحان ربي الأعلى". فكان سجوده قريبًا من قيامه"[35].

المشهد السابع: الفصل بين السجدتين عن ابن عباس: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول بين السجدتين "اللهم اغفر لي وارحمني

---

[32] رواه مسلم ح1099

[33] رواه مسلم ح1111

[34] رواه مسلم ح1102

[35] رواه مسلم ح1850

واجبرني واهدني وارزقني"[36].

المشهد الثامن: جلسة التشهد، فيجلس العبد بين يديّ ربّه جاثيًا على ركبتيه خاشعًا، متورّكًا أو مفترشًا قدميه، فيقدّم التحيات لله تعالى، ثمّ يُلقي السلام رسول الله وعلى عباد الله الصالحين، ثمّ يتشهَّد، فعن عبد الله بن مسعود، قال: "كُنَّا إِذَا صَلَّيْنَا خَلْفَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قُلْنَا السَّلاَمُ عَلَى جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ السَّلاَمُ عَلَى فُلاَنٍ وَفُلاَنٍ فَالْتَفَتَ إِلَيْنَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّلاَمُ فَإِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَقُلِ التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ السَّلاَمُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ السَّلاَمُ عَلَيْنَا، وَعَلَى عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ فَإِنَّكُمْ إِذَا قُلْتُمُوهَا أَصَابَتْ كُلَّ عَبْدٍ لِلَّهِ صَالِحٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ"[37]. قال ابن القيّم: "فالتحية تتضمن الحياة والبقاء والدوام، ولا يستحقّ أحد هذه التحيات إلا الحي الباقي الذي لا يموت ولا يزول ملكه، وكذلك قوله: والصلوات، فإنه لا يستحقّ أحد الصلاة إلا الله عزّ وجلّ، والصلاة لغيره من أعظم الكفر والشرك به، وكذلك قوله: والطيبات، هي صفة الموصوف المحذوف أي الطيبات من الكلمات، والأفعال، والصفات، والأسماء لله وحده.

وجعلت كلمات التحيات في آخر الصلاة بمنزلة خطبة الحاجة أمامها، فإن المصلي إذا فرغ من صلاته جلس جلسة الراغب الراهب يستعطي من ربّه ما لا غنى به عنه، فشرع له أمام استعطائه كلمات التحيات مقدمة بين يدي سؤاله، ثم يتبعها بالصلاة على من نالت أمته هذه

[36] سنن الترمذي ح 284

[37] رواه البخاريّ ح831، ومسلم ح924.

النعمة على يده، فكأن المصلي توسل إلى الله سبحانه بعبوديته، ثم بالثناء عليه، والشهادة له بالوحدانية، ولرسوله بالرسالة، ثم الصلاة على رسوله، ثم قيل له تخيَّر من الدعاء أحبه إليك، فذاك الحقّ الذي عليك، وهذا الحقّ الذي لك. فإذا أتى بها المصلي، أُمر أن يستعيذ بالله من مجامع الشرّ كلّه"[38].

المشهد التاسع: التسليم، وبه يخرج العبد من الصلاة، والعبد الخارج من الصلاة عائد من زيارة من في السماء محمّلًا بأعظم الحُلل والعطايا! فحقّ أن يتلقانا ونتلقاه بالسلام! وقد شرع من الأذكار بعد السلام: اللهم أنت السلام، اللهم أعني على ذكرك وشكرك، والتسبيح والتحميد والتكبير شكرًا ورضا.

الأصل السابع: المستعان عليه: لم يصرّح في الآية على أي شيء نستعين؛ لدلالة على العموم، ويمكننا تقديره وتقريبه بقولنا: على أمور الدين والدنيا (جلب النفع والخير ودفع الضرّ والشرّ). فلا يُجْلَب نفعٌ ولا يُدفع ضرٌّ إلا بعون من الله تعالى!

الأصل الثامن: الصبر وسيلة لحصول معيّة الله تعالى، وأول موضع ذُكِر فيه اسم الله تعالى مع وصف من أوصاف العباد في هذه الآية؛ لأن الصابرين أفقر الناس إلى معية قويّ قادر ينصرهم على من عاداهم، وييسّر لهم سُبل الخروج من المصائب والشدائد، وقد تكرر اسم الله

[38] ابن القيّم، **الصلاة وحكم تاركها**، مرجع سابق، ص 215-216 بتصرف يسير.

تعالى مع لفظ "الصابرين" أربع مرات.

قال الله تعالى: "إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ، "الصَّابِرِينَ" صفة صريحة تعمّ كلّ صابر، والآية تتضمن سنة إلهية لا تتبدل: من تحلّى بصفة الصبر، كان الله تعالى معه، ومن كانوا مع الله تعالى، هان عليهم التقدّم واستباق الخيرات، وكانوا في حفظ تامّ، ورعاية مطلقة، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون. إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ.

قصّة وعبرة: الصبر على البلاء من غير تسخّط، وحسن العاقبة.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أنَّ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قَالَ: "إِنَّ أَيُّوبَ نَبِيَّ الله –صلى الله عليه وسلم–لَبِثَ فِي بَلائِهِ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً، فَرَفَضَهُ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ، إلاَّ رَجُلَيْنِ مِنْ إِخْوَانِهِ كَانَا يَغْدُوَانِ إِلَيْهِ وَيَرُوحَانِ، فَقَالَ أحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: تَعْلَمُ وَالله لَقَدْ أذْنَبَ أَيوبُ ذَنْباً مَا أذْنَبَهُ أحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: مُنْذُ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً لَمْ يَرْحَمْهُ الله فَيَكْشِفُ مَا بِهِ. فَلَمَّا رَاحَا إِلَيْهِ لَمْ يَصْبِرِ الرَّجُلُ حَتَّى ذكر ذلِكَ لَهُ، فَقَالَ أَيُّوبُ: لا أَدْرِي مَا تَقُولُ، غَيْرَ أَنَّ الله يَعْلَمُ أَنِّي كنْتُ أَمُرُّ عَلَى الرَّجُلَيْنِ يَتَنَازَعَانِ فَيَذْكُرَانِ الله وَأَرْجِعُ إِلَى بَيْتِي فَأُكَفِّرَ عَنْهُمَا كَرَاهِيَةَ أَنْ يُذْكَرَ الله إلاَّ فِي حَقٍّ، قَالَ: وَكَانَ يَخْرُجُ إِلَى حَاجَتِهِ، فَإِذَا قَضَى حَاجَتَهُ أَمْسَكَتِ امْرَأَتُهُ بِيَدِهِ، فَلَمَّا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَبْطَأَ عَلَيْهَا، فَأَوْحَى اللهُ إِلَى أَيُّوبَ فِي مَكَانِهِ {ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ}، فَاسْتَبْطَأَتْهُ، فَبَلَغَتْهُ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهَا قَدْ أَذْهَبَ اللهُ مَا بِهِ مِنَ الْبَلاَءِ، فَهُوَ أَحْسَنُ مَا كَان، فَلَمَّا رَأَتْهُ، قَالَتْ: أَيْ بَارَكَ اللهُ فِيكَ، هَلْ رَأَيْتَ نَبِيَّ اللهِ. هذَا الْمُبْتَلَى؟ وَالله عَلَى ذلكَ مَا رَأَيْتُ أَحَداً كَان أَشْبَهَ بِهِ

مِنْكَ إِذْ كَانَ صَحِيحاً. قَالَ: إِنِّي أنَا هُوَ. وَكَانَ لَهُ أَنْدَرَانِ: أَنْدَرُ الْقَمْحِ وَأَنْدَرُ الشَّعِيرِ، فَبَعَثَ اللهُ سَحَابَتَيْنِ، فَلَمَّا كانَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى أَنْدَرِ الْقَمْحِ، أفْرَغَتْ فِيهِ الذَّهَبَ حَتَّى فَاضَتْ، وَأفْرَغَتِ الأُخْرَى عَلَى أَنْدَرِ الشَّعِيرِ الْوَرِقَ حَتَّى فَاضَتْ"[39]. ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ * ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَى لِأُوْلِي الأَلْبَابِ * وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾[40].قال ابن الأثير: "الأنْدَر: البَيْدَر هو الموضع الذي يُداسُ فيه الطَّعام بلغة الشام"[41].

---

[39] ابن حبان، محمد بن حبان، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، ت: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط1414هـ، ح 2898، وهذا الحديث صحّحه: الحاكم ووافقه الذهبيّ، وصحّحه من المعاصرين الألباني، والأرنؤوط، وورد في صحيح البخاريّ قَالَ النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم: "بَيْنَا أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ عُرْيَانًا فَخَرَّ عَلَيْهِ جَرَادٌ مِنْ ذَهَبٍ فَجَعَلَ أَيُّوبُ يَحْتَثِي فِي ثَوْبِهِ فَنَادَاهُ رَبُّهُ يَا أَيُّوبُ أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتُكَ عَمَّا تَرَى قَالَ بَلَى وَعِزَّتِكَ وَلَكِنْ لاَ غِنَى بِي عَنْ بَرَكَتِكَ". ولا أقول: انتظروا أن تمطر السماء عليكم ذهبًا وفضة خرقًا للسنن، بل اعملوا بالأسباب، وأبشروا.

[40] سورة المؤمنون آية (41-44)

[41] ابن الأثير، المبارك بن محمد، النهاية في غريب الحديث والأثر، المكتبة العلمية - بيروت، 1399هـ، ج1/ 176

المطلب الثالث: ولكم في الجهاد حياة ونصر!

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾[42].

أما تسمع قعقعة السلاح، وحشرجات الأنفس على أسنّة الرماح! أما يخفق قلبك لصرير أبواب السماء تُفتَّح لتلك الأروح الوافدة على ربّها الكريم، لقد استحالت ساحة الجهاد في ضوء هذه الآية المباركة منصّة شريفة رفيعة لإطلاق أرواح الشهداء؛ لتأوي إلى قناديل معلقة بالعرش، وقد استوعبت الآية في سلك الاسم الموصول وصلته المتجدّدة (مَنْ يُقْتَلُ) ثُلّةَ مَن قضى نحبه شهيدًا بين يدي الرسول عليه الصلاة والسلام، ومن جاء بعدهم، فدخل في عمومها كلّ شهيدٍ في البرّ والبحر حتى آخر شهيدٍ يفارق الأرض إلى جنّة عرضها السماوات والأرض.

ولقد أثار موضوع الآية وموضعها في السياق تساؤلي، فقلت في نفسي: لأمر مّا يسوّد من يسود! إن لورود هذه الآية ها هنا لشأنًا! فذهبت ألتمس الجواب فيما تيسَّر من التفسير! وأقلب الفكر. فظهر لي أن الآية مسوقة لتقوية العقيدة القتاليّة (العسكريّة) وبناء فقه تحريض واستنفار جديد! ولقد تأمّلت في بعض ما أبدعه العرب في التحريض على القتال، فكان مبلغَ أمرِهم تهوينُ الإقدام على الموت، ونفي الجزع،

[42] سورة البقرة آية (154)

ولكن ما إن يموتُ بطلٌ إلا تعالت الحسرات، وتوالت قصائد التفجُّع والتوجُّع والرثاء! وحال الخنساء من قبلُ ومن بعدُ شاهد صدق! أمّا البيان الوارد في الآية فليس له نظير، فهو أسلوب فريد سديد في تثبيت الأقدام، والتحريض على الإقدام، لا عهد للعرب بمثله، وسأذكر لك ما ظهر لي من أصول العقيدة القتالية (العسكريّة) وفقه التحريض:

الأمر الأول: التبصير بأصول العقيدة القتالية في الإسلام:

الأصل الأول: موافقة الشرع نيّة ومقصدًا هي الأصل في الحكم على القتال، فما كان منه في سبيل الله تعالى فهو المحمود شرعًا، وهو كلّ قتالٍ أُنشئ؛ لتكون كلمة الله هي العليا، وفي الحديث المتفق عليه عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: الرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلْمَغْنَمِ وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلذِّكْرِ وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانُهُ فَمَنْ فِي سَبِيلِ اللهِ. قَالَ: مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ"[43]. فقوله تعالى: "وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ" يبيّن أن هذه الفضيلة والمكرمة محصورة فيمن يقتل في سبيل الله تعالى، وعليه فيكون إصلاح النيات وتصحيح المقاصد عند استنفار المؤمنين وتحريضهم للقتال هو الأصل الأول للعقيدة القتالية في الإسلام.

وكلّ قتال أُضرمت ناره إثمًا وعدوانًا فهو مذموم، وعاقبته الخسران المبين، كالقتال غضبًا، وشجاعة، وليُرى مكانُه، ورياء، وحميّة لقبيلة أو

---

[43] رواه البخاريّ ح2810 ومسلم ح5028

عصبة باغية وما شابه هذه الصور؛ لأن بواعثها جاهليّة، وهي تفسد النيّة، وتبطل أجر الجهاد.

الأصل الثاني: تقرير أن القتل في سبيل الله تعالى حياة، وليس موتًا، وهذا المفهوم للقتل في العقيدة العسكريّة الإسلاميّة يخالف جميع ما كان عليه الناس، وهو أصل عقديّ عظيم، فنقول: أيها المقاتلون في سبيل الله إن لكم في القتال لحياة وأيّ حياة! حياة فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر في جنات ونهر، في مقعد صدق عند مليكٍ مقتدر.

وقد ورد التحذير في الآية من الاعتقاد بأن من يقتل في سبيل الله تعالى "أَمْوَاتٌ"، فالنهيُ في قوله تعالى: "وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ" يدلّ بمنطوقه على تحريم قول: "أَمْوَاتٌ" لمن يقتل في سبيل الله تعالى؛ لأنهم ليسوا كذلك، بل هم أحياء، ولأن هذا القول ينبئ عن اعتقاد فاسد يخالف ما بيّنه الله تعالى.

وقد بيّن الله تعالى هذه الحياة في قوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ

وَلَا هُـمْ يَحْزَنُـونَ * يَسْتَبْشِـرُونَ بِنِعْمَـةٍ مِـنَ اللَّهِ وَفَضْـلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِـيعُ أَجْـرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[44].

عـن أَنَـس بْـن مَالِـكٍ، رَضِـيَ اللَّهُ عَنْـهُ، عَـنِ النَّـبِيِّ صـلى الله عليـه وسـلم "قَـالَ: مَـا أَحَـدٌ يَـدْخُلُ الْجَنَّةَ يُحِـبُّ أَنْ يَرْجِـعَ إِلَى الـدُّنْيَا وَلَـهُ مَـا عَلَـى الأَرْضِ مِـنْ شَـيْءٍ إِلاَّ الشَّـهِيدُ يَتَمَـنَّى أَنْ يَرْجِـعَ إِلَى الـدُّنْيَا فَيُقْتَـلَ عَشْـرَ مَـرَّاتٍ لِمَـا يَرَى مِنَ الْكَرَامَةِ"[45].

الأمر الثاني: من أهمّ أصول فقه التحريض الواردة في الآية:

الأصـل الأول: تحـريم القتـال في غـير سـبيل الله تعـالى، فكـلّ قتـالٍ أنشـئ علـى خـلاف مـا شـرعه الله تعـالى وبيّنـه رسـول الله تعـالى فهـو ردٌّ، فللقتـال أحكـام شـرعيّة مرعيّـة، لا يحـلّ نقضـها، ومـا أكثـر الـرايات الجاهليّـة الـتي تسـخط الله ربَّ البريّـة، ويُحشـر النـاس تحتهـا للقتـال بـل ويطلـق علـى قتلاهم شهداء زيادة في التغرير والتضليل؛ فباؤوا بغضب على غضب.

الأصـل الثـاني: تحـريم قـول: "أمـوات" لمـن يقتـل في سـبيل الله تعـالى، قـال الله تعـالى: "وَلَا تَقُولُـوا لِمَـنْ يُقْتَـلُ فِي سَـبِيلِ اللَّهِ أَمْـوَاتٌ"؛ لأنـه قـول باطـل مخـالف لمـا عليـه الشـهداء عنـد الله تعـالى مـن الحيـاة الناعمـة، وفيـه مشـاقّة ومضـادّة لمقاصـد الاسـتنفار والتحـريض علـى القتـال في سـبيل الله تعـالى؛ لأنـه يَفُـتُّ في عضـد جنـد الله تعـالى، ويلحـق بهـذا القـول الممنوع كـلّ مـا

[44] سورة آل عمران آية (169-171)

[45] رواه البخاريّ ح2817.

يفضي إلى هذه المفاسد: كالتثبيط والإرجاف، وإثارة الفتن، والتحريش بين المؤمنين، والواجب إغاظة الأعداء، وتمزيقهم، وتعويقهم، وتخذيلهم، وتثبيطهم، وسلقهم بألسنة الإعلام الحداد، وبثّ الرعبّ والرهبة في قلوبهم.

وقد تعرّض فقه الاستنفار والتحريض للتبديل والتحريف بسبب الحرب العالميّة المنظّمة على الإسلام، وأهله؛ حتى أحجم كثير من العلماء، والدعاة، والمفكرين عن الصّدع بالحقّ، واستكان من استكان للتثبيط والتعويق والضغوط الرامية إلى نزع فتيل الغيرة على حرمات الله تعالى من قلوب العباد، وأصبح الحديث عن القتال في سبيل الله تعالى غريبًا، وكثُر الحديث عن وسطيّة التبعيّة والذلّة والمسكنة.

الأصل الثالث: مشروعيّة التبشير والاستبشار: هذه الآية فيها تبشير كريم للمؤمنين بحسن عاقبة من يقتل في سبيل الله تعالى، فهي تدعو المقاتلين في سبيل الله إلى الاستبشار بما يقدمون عليه من النعيم المقيم؛ لأن تجارتهم رابحة، قال الله تعالى: ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[46]، فاستبشروا أيها المصلحون، وبشّروا المؤمنين بما وعدَنا الله تعالى به من الفوز في الدارين. فالاستبشار والتبشير شعيرتان من شعائر الإسلام، وهما من أقوى دوافع الإقدام والاقتحام والمسابقة لإحقاق الحقّ وإزهاق الباطل، فلننشر بين أيدي الناس سِجِلّات البشائر المبثوثة في كتاب الله تعالى، وهي كثيرة.

[46] سورة التوبة آية (111)

قصّة وعبرة: عَنْ أَنَسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: "غَابَ عَمِّي أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ عَنْ قِتَالِ بَدْرٍ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ غِبْتُ عَنْ أَوَّلِ قِتَالٍ قَاتَلْتَ الْمُشْرِكِينَ لَئِنِ اللَّهُ أَشْهَدَنِي قِتَالَ الْمُشْرِكِينَ لَيَرَيَنَّ اللَّهُ مَا أَصْنَعُ فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ وَانْكَشَفَ الْمُسْلِمُونَ قَالَ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلاَءِ، يَعْنِي أَصْحَابَهُ – وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلاَءِ، يَعْنِي الْمُشْرِكِينَ، ثُمَّ تَقَدَّمَ فَاسْتَقْبَلَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ فَقَالَ يَا سَعْدُ بْنَ مُعَاذٍ الْجَنَّةَ وَرَبِّ النَّضْرِ إِنِّي أَجِدُ رِيحَهَا مِنْ دُونِ أُحُدٍ قَالَ سَعْدٌ فَمَا اسْتَطَعْتُ يَا رَسُولَ اللهِ مَا صَنَعَ قَالَ أَنَسٌ فَوَجَدْنَا بِهِ بِضْعًا وَثَمَانِينَ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ، أَوْ طَعْنَةً بِرُمْحٍ، أَوْ رَمْيَةً بِسَهْمٍ وَوَجَدْنَاهُ قَدْ قُتِلَ وَقَدْ مَثَّلَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ فَمَا عَرَفَهُ أَحَدٌ إِلاَّ أُخْتُهُ بِبَنَانِهِ قَالَ أَنَسٌ كُنَّا نَرَى، أَوْ نَظُنُّ أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أَشْبَاهِهِ ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾[47]، إِلَى آخِرِ الآيَةِ"[48].

الأصل الرابع: استحباب تصبير أقارب الشهداء وتبشيرهم: في الآية تصبير عظيم لأهل الشهيد؛ لأنه انتقل من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، فلا خوفٌ عليه ولا يحزن. وعن أَنَس بْن مَالِكٍ أَنَّ أُمَّ الرُّبَيِّعِ بِنْتَ الْبَرَاءِ وَهْيَ أُمُّ حَارِثَةَ بْنِ سُرَاقَةَ أَتَتِ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَتْ يَا نَبِيَّ اللهِ أَلاَ تُحَدِّثُنِي عَنْ حَارِثَةَ، وَكَانَ قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ أَصَابَهُ سَهْمٌ غَرْبٌ فَإِنْ كَانَ فِي الْجَنَّةِ صَبَرْتُ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ اجْتَهَدْتُ عَلَيْهِ فِي الْبُكَاءِ، قَالَ: "يَا أُمَّ حَارِثَةَ إِنَّهَا جِنَانٌ فِي الْجَنَّةِ وَإِنَّ ابْنَكِ أَصَابَ الْفِرْدَوْسَ الأَعْلَى"[49].

[47] سورة الأحزاب آية (23)

[48] رواه البخاريّ ح2805.

[49] رواه البخاريّ ح2817.

فقولها: "فَإِنْ كَانَ فِي الْجَنَّةِ صَبَرْتُ" احتسبت وتسلَّيتُ، وقد ورد في بعض الآثار أنها "رجعت، وهي تضحك وتقول: بخ بخ لك يا حارثة".

الأصل الخامس: مشروعيّة تزيين المكاره وتهوينها بإظهار عواقبها الحسنة الكريمة. إن الأصل في الإنسان السَّوي حبّ السلامة، والأمن، وعمارة الأرض، والبر، والخير، وصلاح البيئة، ويكره الفساد، والدمار، وسفك الدماء، وتكاثر الأيتام والأرامل والثكالى، ويكره الوسائل المفضية إليها من النزاعات والحروب الآثمة.

وحين يتوسّل المجرمون بالحرب والقتل إلى منع الناس من اتباع الحقّ وتبليغه، وإلى قهرهم واستنزاف خيراتهم، تنتفض الفطرة؛ لتتخذ القتال والدفاع سبيلًا إلى مرضاة الله تعالى، وسُلَّمًا للحياة الطيبة الكريمة، ولقد استوقفني مليًّا أسلوب القرآن الكريم والسنّة في تزيين المكاره وتهوينها على النفوس المؤمنة فجعل الموت، والنقص من الأموال، والأنفس في سبيل الله تعالى تجارة رابحة: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾[50]، ورتَّب عليها مصالح أخرى تحبُّونها: النصر على العدو، ودفع شره، والفتح، والغنائم، قال تعالى: "وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ".

---

50 سورة التوبة آية (111)

وفي الحديث المتفق عليه عن جندب رضي الله عنه قال: "بَيْنَمَا النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يَمْشِي إِذْ أَصَابَهُ حَجَرٌ فَعَثَرَ فَدَمِيَتْ إِصْبَعُهُ فَقَالَ: "هَلْ أَنْتِ إِلاَّ إِصْبَعٌ دَمِيتِ وَفِي سَبِيلِ اللهِ مَا لَقِيتِ"[51].

من الدلالات اللغويّة والأصوليّة:

"وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ" وَلَا تَقُولُوا" "وَلَا تقُولُوا" النهي للتحريم، قال ابن عاشور: "نَهْيٌ عَنِ الْقَوْلِ النَّاشِئِ عَنِ اعْتِقَادٍ، ذَلِكَ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَقُولُ إِلَّا مَا يَعْتَقِدُ فَالْمَعْنَى وَلَا تَعْتَقِدُوا"[52]. "لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ" "من" اسم موصول يعمّ، "سَبِيلِ اللَّهِ" "سَبِيلِ" نكرة مضافة لمعرفة يعمُّ، والمراد به سبيل مخصوص، وهو حقيقة شرعيّة. قال الإمام الطبريّ: "استعينوا بالصبر على طاعتي في جهاد عدوّكم، وترك معاصيَّ، وأداء سائر فرائضي عليكم، ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله: هو ميت، فإن الميت من خلقي مَنْ سلبته حياتَه وأعدمتُه حواسَّه، فلا يلتذّ لذة ولا يُدرك نعيمًا، فإنّ من قُتل منكم ومن سائر خَلقي في سبيلي، أحياءٌ عندي، في حياة ونعيم، وعيش هَنِيّ، ورزق سنِيّ، فَرحين بما آتيتهم من فضلي، وَحبوتهم به من كرامتي"[53].

"بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ" "بَلْ" الإضراب للإبطال، قال العلّامة ابن عاشور: " إبطالًا لمضمون المنهي عن قوله، والتقدير بل هم أحياء،

---

[51] رواه البخاريّ ح2802 ومسلم ح4755

[52] ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد، التحرير والتنوير: تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد ، الدار التونسية للنشر – تونس طبعة 1984م ج53/2

[53] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج3/ 214-215

وليس المعنى بل قولوا: هم أحياء لأن المراد إخبار المخاطبين هذا الخبر العظيم"[54]. "لَا تَشْعُرُونَ" "لا" نافية والفعل بعدها يعمّ، والمراد شعور خاصّ، وأنى لهم!

[54] ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج2/52

المطلب الرابع: الاسترجاع ضياء البصائر وعدّة الصابر:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[55].

ها هو ربُّنا جلّ ثناؤه يرفع الحجاب عن بعض حقائق المستقبل؛ ليُطلعنا على شيء ممّا نحن قادمون عليه من الابتلاءات والشدائد؛ حتى نوطِّن أنفسنا ونتأهب، وهذه نعمة عظيمة، وفي ذكر أجناس الابتلاءات المقبلين عليها دعوة إلى إعداد العدّة وأخذ الحذر؛ لندفعها ونقلّل من آثارها وفق سنن الله تعالى، فإن دفع الأضرار والمشاقّ عن الأنفس بما شرعه الله تعالى عبادةٌ يحبُّها الله تعالى، والعمل بسنن الله تعالى في دفع الأقدار المكروهة بالأقدار المرغوبة طاعة، وتركه معصية.

ثمّ إن الله تعالى بفضله ورحمته لم يكلنا إلى أنفسنا الضعيفة؛ لنكتشف كلّ ما يعيننا على دفع تلك المصائب، ولنعمل على تحصيله ونستعدّ به، بل جمع لنا نعمة التبصير بما نحتاج إليه، ثمّ جهّزنا بتلك العدّة وزوّدنا بذاك الزاد، وجمعه بين أيدينا في كلمات طيبات مباركات، ووالله إنها لنعم عظام: نعمة الإعلام بمّا سينزل بنا قبل نزوله، ونعمة التبصير بما سنحتاج إليه؛ لمعالجة تلك النوازل، ونعمة التزويد بالعلاج نفسه من غير طلب ولا بحث، ونعمة العلم بثمرات الاسترجاع، ونعمة حصول تلك الثمار الطيّبة. اللهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم

---

[55] سورة البقرة آية (155-157)

إحسانك. وهذه النعم مجتمعة في سياق واحد. فاجتمع في الآيات الثلاث دواعي الصبر، ونعمة الذكر، وموجِبات الشكر.

وسوف أبيّن أصولًا ممّا تضمّنته هذه الآيات:

الأصل الأول: الإعلام بما سينزل بنا من ابتلاء ومصائب قبل حصولها: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾.

إن هذه الآية تتحدّث عن سنّة الابتلاء في سياق سنّة الصبر، ولسنّة الابتلاء وجهان: سنّة الابتلاء بالخير، وسنّة الابتلاء بالشرّ، قال الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[56]، وقد ذكر ربّنا عزّ وجلّ وجهًا واحدًا من وجهي الابتلاء ألا وهو الابتلاء بشيء ممّا تكرهه الأنفس، وهو وارد في سياق سنّة الله تعالى في الصبر وجزائه. وقد أعلم الله تعالى بهذه الآيات عباده المؤمنين "أن تمام النعمة ومنزلة الكرامة عند الله لا يحول بينهم وبين لحاق المصائب الدنيوية المرتبطة بأسبابها، وأن تلك المصائب مظهر لثباتهم على الإيمان ومحبة الله تعالى والتسليم لقضائه؛ فينالون بذلك بهجة نفوسهم بما أصابهم في مرضاة الله، ويزدادون به رفعة وزكاء، ويزدادون يقينا بأن اتباعهم لهذا الدين لم يكن لنوال حظوظ في الدنيا"[57].

---

[56] سورة الأنبياء آية (35)

[57] انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج54/2

وإني لتغمرني فرحة غامرة حين أرى الألطاف تمتدّ امتنانًا وابتلاءً؛ لتنير للمؤمنين سبل السلامة والكرامة، ألم ترَ كيف امتنّ الله تعالى على المؤمنين بذكر أشرف النِّعم، وهي النِّعم الدينيّة، وكيف اقتصر من الابتلاء على الانتقاص القليل من أهون النِّعم، وهي النِّعم الدنيويّة! إن هذا لهو الفضل المبين! فقد امتنّ بالأشرف تشريفًا، وابتلانا بالأخف تخفيفًا، فتجلّى لي معنى عظيم، ألا وهو أن الآيات السبع كلّها محمّلة بالنعم تكريمًا للأمّة الوارثة الشريفة، وأن ما ذكر فيها من تنبيه على وقوع المصائب والشدائد؛ لأخذ الحذر، والإعداد هو نعمة، فالسياق عامر بنّعم التبصير والتبشير. فالقتل في سبيل الله شهادة، وهي نعمة، والإعلام بالابتلاء وبيان أنواعه نعمة، وتخفيف الابتلاء نعمة: ففي جعله بشيء من الخوف والجوع تقليلًا وتهوينًا نعمةٌ، وفي جعله نقصًا وليس استئصالًا نعمة، وفي ذكره مرتبًا بالتدريج من الأخفّ إلى الأثقل، وفي ختمها بما يوحي بالتخفيف رحمة، ومن رحمته ونعمته أنه لم يفتح علينا أبواب زينة الحياة الدنيا وزُخْرُفِها ابتلاء؛ لأنها أشدّ فتكًا بالقلوب، وكثيرًا ما تفضي إلى الاستدراج الذي لا نجاة معه، ولذا خشي الرسول عليه الصلاة والسلام علينا منها، فقال: "فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ قَبْلَكُمْ فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُم"[58]، وفي الدلالة على علاج الابتلاء وبيان عاقبته نعمة، وفي الإكرام بذلك الجزاء: صلوات من ربّهم، ورحمة، وهدى، وأجر، وإخلاف بخيرٍ نِعمة.

وقد اعتنى المفسرون في بيان مقاصد الابتلاء من رفع الدرجات، وتكفير

[58] رواه البخاريّ ح4015، ومسلم ح7614

السيئات، وتزكية الأنفس، وتقوية العزائم، والتمحيص، وإقامة الأَوَد (العوج)، قال الإمام الطبريّ: "وهذا إخبار من الله تعالى ذكره أتباعَ رَسوله صلى الله عليه وسلم، أنه مبتليهم وممتحنهم بشدائد من الأمور، ليعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه، كما ابتلاهم فامتحنهم بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، وكما امتحن أصفياءَه قَبلهم"[59].

وثمّة مقاصد قلّ التعرُّض لها، ومنها ترسيخ أسس العقيدة الصحيحة الجامعة بين التسليم لله تعالى والرضا بقضائه، والتوكّل عليه والعمل بالأسباب والسنن الدافعة للبلاء وآثاره، فالآيات تدعو المؤمنين إلى الأخذ بالأسباب والعمل بسنن الله تعالى؛ ليدفعوا الأقدار المرهوبة بالأقدار المرغوبة؛ حتى لا يعطِّلوا سنن الله تعالى الكونيّة، ويتكلوا ويتكاسلوا زاعمين أنهم راضون بأقدار الله تعالى، متوكّلون على الله تعالى. وإن مثل من يدعو الناس إلى الاستسلام للأقدار المخوفة وما تحمله من الأضرار، كمثل قائد عسكريّ تواق إلى روضات الجنات أبلغ عدوّه بمكامن ضعف جيشه؛ ليقتلهم فينالوا الشهادة! ولقد لقنت العالمَ جائحةُ "كورونا" دروسًا بليغة في حسن التعامل مع أقدار الله تعالى، ولا تزال!

والأدلّة الآمرة بجلب النفع ودفع الضرّ والشرور، والناهية عن ارتكاب أسباب الفساد وما يضرّ كثيرة جدًّا، فيجب على المؤمنين الاستعداد لدفع المصائب والشدائد المضرّة بدنيا الناس، ودينهم، ما أمكن، فالجوع

---

[59] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج3/ 219

يطرد بالتزوّد، وخوف العدو يزال بحسن إعداد القوّة، وتطوير الطبّ والوسائل الصحيّة يدرأ الأمراض، فما أنزل الله من داء إلا وأنزل له دواء، فالواجب العمل بأحسن الأسباب والبرامج المدنيّة والعسكريّة؛ لكي نجلب المصالح، وندفع الشرور، ونخفّف الأضرار. قال العلّامة محمد رشيد رضا: "ولنمتحننكم ببعض ضروب الخوف من الأعداء، وغيره من المصائب البشرية المعتادة في المعايش، وأكّد هذا بصيغة القسم لتوطين الأنفس عليه، فعلّمهم به أن مجرد الانتساب إلى الإيمان لا يقتضي سعة الرزق وقوة السلطان، وانتفاء المخاوف والأحزان، بل يجري ذلك بسنن الله تعالى في الخلق، كما أن من سنن الخلق وقوع المصائب بأسبابها. وإنما المؤمن الموفق من يستفيد من مجاري الأقدار، إذ يتربى ويتأدب بمقاومة الشدائد والأخطار، ومن لم تعلمه الحوادث، وتهذبه الكوارث، فهو جاهل بهدي الدين، متبع غير سبيل المؤمنين"[60].

أقسام الابتلاءات وترتيبها: قال الله تعالى: "وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ". وسأضعها في قسمين على ظاهر الآية:

القسم الأول: الابتلاء "بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ"، تنكير شيء للتقليل، والتخفيف، والخوف والجوع أثران من آثار المصائب في نفس الإنسان.

أولهما ذكرًا الخوف ومحلّه القلب، وهو توقّع المكروه المؤذي، فيضطرب القلب، ويتألم من ذلك، وثانيهما: الجوع، بسبب نقص الطعام، وأثر

[60] رضا، محمد رشيد، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة طبعة 1990 م ج2/32

الخوف أهون من أثر الجوع، ولذا بدأ بذكره، فأذى الخوف يطال القلوب، فيزعجها، ويذهب أمنها، وسكينتها، وأما ألم الجوع وأذاه فيوهن الأبدان، ويشوش الأذهان، ويُقعد الناس صغارًا وكبارًا. وممّا يدل على أن الخوف أخفّ من الجوع تقديم الجوع في سياق التحذير من العقوبة، قال الله تعالى: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[61]، وتقديم ذكره في سياق الامتنان برفع الابتلاء، قال الله تعالى: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾[62]، وهما أخفّ المذكورات الخمس، فبدأ بهما؛ لأن في البدء بالأخف تلطُّفًا ورفقًا. فإذا ذهب الجوع والخوف عاد الإنسان سويًّا كما كان.

القسم الثاني: الابتلاء بنقص "مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ"، تنكير "نقص" للتقليل، والتخفيف؛ لأن الانتقاص يدلّ على أخذ القليل، وترك الأكثر، ولم يجعل بلاءه أخذ استئصال، وهذه الأجناس:

الأول: الأموال: وتشمل جميع الأموال: الدينار، والدرهم، والتجارات، والأنعام، والزروع، والثمار وغيرها، من الأموال.

الثاني: الأنفس: والنقص منها يشمل نوعين:

النوع الأول: نقص عَدد المؤمنين بهلاك بعضهم بالقتل، أو بالمرض، أو غيرهما، ونقص الأنفس بفقدها بلاءٌ واقع على غير المفقود؛ لأن المفقود من المؤمنين الصالحين قد استراح من عناء الدنيا، وقد يترك أيتامًا،

---

61 سورة النحل آية (112)

62 سورة قريش آية (4)

وأرملة، وأمًّا ثكلى، وأبًا شيخًا كبيرًا، فيلحق الضرر بوفاته من يعولهم، وقد يكون ذا نفعٍ عامّ، وأما إن كان فاجرًا شقيًّا، فمستراح منه، كما جاء عَنْ أَبِي قَتَادَةَ بْنِ رِبْعِيٍّ الأَنْصَارِيِّ أَنَّهُ كَانَ يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم مُرَّ عَلَيْهِ بِجِنَازَةٍ فَقَالَ: "مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاحٌ مِنْهُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ مَا الْمُسْتَرِيحُ وَالْمُسْتَرَاحُ مِنْهُ؟ قَالَ: الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وَأَذَاهَا إِلَى رَحْمَةِ اللهِ، وَالْعَبْدُ الْفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلاَدُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ"[63].

النوع الثاني: نقص جزئيّ، كنقص بعض الأعضاء كالأطراف، وغيرها، ونقص بعض وظائف الأعضاء: كالسمع، والشَّمّ، والبصر وأثر هذا الابتلاء واقع على صاحب البلاء نفسه وعلى من حوله، فيكلفهم حمل أعباء العلاج، والرعاية وغير ذلك.

الثالث: نقص الثمرات: وهي أقوات الناس، وفواكههم، والثمرات نوع من الأموال، فَلِمَ أفردت بالذكر؟ ولم فُصِل بين الأموال والثمرات بالأنفس؟ والجواب: أن إفرادها بالذكر من بين الأموال للاهتمام والعناية، فإن حياة الناس لا تقوم إلا بالثمرات، وأما ذكرها بعد الأنفس، فقد بدت لي احتمالات، واطّلعت على توجيهات، وأحسن ما بدا لي حتى الآن –والعلم عند الله تعالى– أمور، منها:

الأول: أن الثمرات فهي من حيث حقيقتها نوعًا خاصًّا من الأموال، وأما من حيث منفعتها فهي قوت ضروريّ لحفظ المُهج، وإقامة الأبدان، فنقصها يُدلي بنَسَبٍ صحيح إلى النقص من الأموال باعتبار الحقيقة،

[63] رواه البخاريّ ح6512، ومسلم ح2245

وإلى النقص من الأنفس باعتبار الأثر، ولذا حسُنَ إفرادها، وذكرُها بعدهما من قبيل ذكر الخاصّ بعد عامّين.

الثاني: أن سياق الآية فيه تخفيف، ورفق؛ لذا كان الختم بها ألطف وأرفق؛ لأن المتبادر إلى الذهن من نقص الثمرات حصول شيء من الجوع (حاجيّ)، ونقص من التفكُّه (وهو تحسينيّ)، وشأنهما أهون من نقص الأنفس.

الثالث: أن الآية تدعو بدلالة الإشارة إلى أخذ الحيطة والحذر والاستعداد لدفع ما هو نازل من الابتلاءات في هذه الأشياء؛ لأن الأخذ بالأسباب الممكنة، لدفع ما يتوقع من المصائب والكوارث، والشدائد وتخفيف أضرارها عن المؤمنين فريضة، ولا يجوز إلقاء الأنفس في المهالك والمشاقّ إلا فيما أذن الله تعالى به من دفع ما هو شرٌّ منه، أو تحصيل ما أهو أوجب ولا يتحصّل إلا بذلك، ولما كان فَقْدُ الثمرات وقلّتها عظيم الأثر في حياة الأمّة، وقد تكون مجلوبة من بلاد غير مسلمة، فتحول دون حصولها أسباب كثيرة، كالقحط في تلك البلاد، أو منع المسلمين من استيرادها ظلمًا أو غير ذلك، فيكون نقصها عندنا لا من جهة عجزنا عن شرائها وجلبها، بل بسبب إثم الأعداء وعدوانهم، وهذا ظاهر في حال الحروب والحصار، فإذا نقصت الثمار في بلادنا، كان ضررها على الأنفس أشدّ، وقد يرفع الأجانب سعرها، فيكون ضررها على الأموال بالغًا؛ لذا كان ذكرها صراحة حيث ذكرت أبلغ في التنبيه والتحذير واتخاذ الأهبة عملًا بسنن الله تعالى في دفع الابتلاءات، وردّ الأقدار المرهوبة بالأقدار المرغوبة، والله تعالى أعلم.

أقسام الابتلاءات من حيث درجة الضرر: الابتلاء بشيء من الخوف والجوع يورث الحرج، والعسر، فهو من جنس المشقات أي من رتبة الحرج اللاحق بالحاجيّات. وأما إذا اشتدّ الجوع (والآية وردت بالتخفيف)، فإنه يفسد الحياة، ويضرّ بها، فيندرج حينئذ في نقص الأنفس، أي الأذى اللاحق بالضروريّات.

أما النقص في الأموال والثمرات فله حالان فإن كان النقص قليلًا يسيرًا، فإنه يكون من قبيل النقص في الحاجيّات أو التحسينات، وإن كان كثيرًا أضرّ بالضروريّات، وأما النقص في الأنفس فهو من الأضرار اللاحقة بالضروريّات.

من الدلالات اللغويّة والأصوليّة:

"وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ" اللام واقعة في جواب قسمٍ مقدّر، والفعل المضارع يدلّ على الاستقبال وقد أكّد بهذا الأسلوب للجزم بوقوع هذا الابتلاء، فهذا نبأ عظيم عمّا سيحلّ في قابل الأيام (المستقبل) بالمؤمنين من ابتلاءات أو ما نسمّيه بالأزمات والمشكلات والتحدِّيات، "بِشَيْءٍ" نكرة مطلقة مقيدة بالصفة بعدها، "من" للتبعيض، "أل" في "الخوف" للاستغراق، وكذلك في "الجوع" "وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ" "نَقْصٍ" نكرة مطلقة مقيدة بالصفة بعدها، "من" للتبعيض، "أل" في "الأموال" للاستغراق، وكذلك في "والأنفس"، "والثمرات"، "وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ" الأمر للوجوب، الصابرين عامّ، صفة صريحة، فالصابرون لهم البشرى، وغيرهم محرومون من البشرى.

الأصل الثاني: التزويد بالعلاج: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.

عرّفتنا الآية بالفائزين بالصبر على الابتلاء، والمجتازين الامتحان بنجاح. ولولا فضل الله تعالى ورحمته ما اهتدينا إلى هذا القول المبارك، ولو نقّبنا في أقطار الأرض والسماوات، وها أنت تجد هذا العلاج بين يديك، وما عليك إلا أن تقوله حين تصيبك المصيبة، ولما كان البلاء شديدًا على الأنفس، خفّف الله تعالى وسيلة تلقّيه ودفعه، فجعلها قولًا ميسورًا.

قال الإمام الطبريّ: "ثم أخبر تعالى ذكره –مع الذي ذكر أنه مُعطيهم على اصطبارهم على محنه، تسليمًا منهم لقضائه، من المغفرة والرحمة– أنهم هم المهتدون، المصيبون طريق الحقّ، والقائلون مَا يُرْضى عنهم والفاعلون ما استوجبوا به من الله الجزيل من الثواب"[64].

"الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ"، الذين يعمّ كلّ من أصيب بمصيبة، وأداة الشرط "إذا" تدلّ على العموم، وعلى كثرة الوقوع، ولفظ "مصيبة" نكرة في سياق الشرط تعمّ كلّ مصيبة أصيب بها العبد الصابر.

عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، أَنَّهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: "مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ، فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ اللهُ: "إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ" اللهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا"[65].

قال العلّامة ابن القيّم: "وهذه الكلمة من أبلغ علاج المصاب، وأنفعه

---

[64] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج3/ 221

[65] رواه مسلم ح2165

لـه في عاجلتـه وآجلتـه، فأنهـا تتضـمن أصـلين عظيمـين إذا تحقـق العبـد بمعرفتهما تسلّى عن مصيبته.

أحدهما: أن العبد وأهله وماله ملك لله عز وجل حقيقة، وقد جعله عند العبد عارية، فإذا أخذه منه، فهو كالمعير يأخذ متاعه من المستعير، وأيضا فإنه محفوف بِعَدَمينِ: عدم قبله، وعدم بعده، وملك العبد له متعة معارة في زمن يسير، وأيضا فإنه ليس الذي أوجده من عدمه، حتى يكون ملكه حقيقةً، ولا هو الذي يحفظه من الآفات بعد وجوده، ولا يبقى عليه وجوده، فليس له فيه تأثير، ولا ملك حقيقيّ، وأيضا فإنه متصرف فيه بالأمر تصرف العبد المأمور المنهي، لا تصرف الملاك، ولهذا لا يباح له من التصرفات فيه إلا ما وافق أمر مالكه الحقيقي.

والثاني: أن مصير العبد ومرجعه إلى الله مولاه الحق، ولا بد أن يخلف الدنيا وراء ظهره، ويجيء ربه فرداً كما خلقه أول مرة بلا أهل ولا مال ولا عشيرة، ولكن بالحسنات والسيئات، فإذا كانت هذه بداية العبد وما خُوِّله ونهايته، فكيف يفرح بموجود، أو يأسى على مفقود، ففكره في مبدئه ومعاده من أعظم علاج هذا الداء، ومن علاجه أن يعلم علم اليقين أنَّ ما أصابه لم يكن ليُخطئه، وما أخطأه لم يكن ليُصيبه""[66]، ثمّ ذكر رحمه الله تعالى قول الله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ – لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ

[66] ابن القيّم، زاد المعاد في هدي خير العباد، مرجع سابق، ج4/ 173

مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[67].

من الدلالات اللغويّة والأصوليّة:

"الَّذِينَ" عامّ، "إِذَا" عامّ، "أَصَابَتْهُم مُصِيبَةٌ" "مُصِيبَةٌ" نكرة في سياق الشرط تعمّ، "قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ"، تقديم الجارّ والمجرور: "إِلَيْهِ" يفيد الحصر، ومفهوم المخالفة: لسنا راجعين إلى غير الله عزّ وجلّ.

الأصل الثالث: التبصير بثمرات الاسترجاع، وهذه الثمرات هي الأشياء التي سنحتاج إليها؛ لمعالجة تلك النوازل، ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾.

إن الله مع الصابرين، وها هو يكشف لهم الستر عن سرّ عظيم ألا وهو ما يفتقر إليه من نزلت بساحته المصائب، فهذه الآية تنادي بصوت ودود: أيها المبتلى بالخوف، والجوع، والفقر، والمرض، والقحط، أيها المبتلى في جسمه، أو ماله، وأهله وولده، أنك بحاجة إلى عدّة، وزاد، ونور؛ لتجتاز هذه البلوى، إنك محتاج إلى صلوات من ربّك، ورحمة، وهداية.

أيها المبتلى، أما آن أن تستبين لك هذه الأسرار؟ أما أدركت قدر الصبر عند الله تعالى؟ أفلا تكون عبدًا صبورًا شكورًا؟ ألا إن أكثر الناس لغافلون عن هذه الحقائق العظام التي لا تدرك إلا بالوحي، فطوبى لمن أيقن ثمّ اهتدى.

---

[67] سورة الحديد آية (22-23)

"صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ": الصلاة لغة: الدعاء، وهو طلب الحاجات من الله تعالى، فإذا أضيفت إلى الله تعالى حملت على ما يليق بجلاله وإفضاله، وإحسانه، والصلاة من الله تعالى الثناء، والكرامة، والخَيْرُ، والبركة، والمغفرة، ومن ثمار صلاة الله على العباد ما بيّنه بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾[68]. وما أشدّ حاجة المبتلى إلى الخروج من ظلمات المصيبة إلى نور التوفيق، والهداية، والعون، والرعاية.

"وَرَحْمَةٌ": والرحمة من الله واسعة، وبركاتها جامعة، فلا ممسك لها إذا فتح الله تعالى أبوابها، ولا مرسل لما أمسك، قال الله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[69] "ورحمة الله تتمثل في مظاهر لا يحصيها العدّ، ويعجز الإنسان عن مجرد ملاحقتها وتسجيلها في ذات نفسه وتكوينه، وتكريمه بما كرمه، وفيما سخر له من حوله، ومن فوقه، ومن تحته، وفيما أنعم به عليه مما يعلمه، ومما لا يعلمه، وهو كثير. يجدها من يفتحها الله له في كل شيء، وفي كل وضع، وفي كل حال، يجدها في نفسه، وفي مشاعره، ويجدها فيما حوله، وحيثما كان، وكيفما كان. ولو فقد كل شيء مما يعدّ الناس فقدَه هو الحرمان.. ويفتقدها من يمسكها الله عنه في كل شيء، وفي كل وضع، وفي كل حالة، وفي كل مكان. ولو وجد كل شيء مما يعده الناس علامة الوجدان والرضوان!

وما من نعمة يمسك الله معها رحمته؛ حتى تنقلب هي بذاتها نقمة. وما

---

68 سورة الأحزاب آية (43)

69 سورة البقرة آية (2)

من محنة تحفّها رحمة الله؛ حتى تكون هي بذاتها نعمة.. ينام الإنسان على الشوك مع رحمة الله، فإذا هو مهاد. وينام على الحرير، وقد أمسكت عنه، فإذا هو شوك القتاد. ويعالج أعسر الأمور برحمة الله، فإذا هي هوادة ويسر. ويعالج أيسر الأمور، وقد تخلت عنه رحمة الله، فإذا هي مشقة وعسر. ويخوض بها المخاوف والأخطار فإذا هي أمن وسلام. ويعبر بدونها المناهج والمسالك فإذا هي مهلكة وبوار! ولا ضيق مع رحمة الله. إنما الضيق في إمساكها دون سواه. لا ضيق ولو كان صاحبها في غياهب السجن، أو في شعاب الهلاك. ولا سعة مع إمساكها ولو تقلّب الإنسان في أعطاف النعيم، وفي مراتع الرخاء.

يبسط الله الرزق مع رحمته، فإذا هو متاع طيب ورخاء، وإذا هو رغد في الدنيا وزاد إلى الآخرة. ويمسك رحمته، فإذا هو مثار قلق وخوف، وإذا هو مثار حسد وبغض، وقد يكون معه الحرمان ببخل أو مرض، وقد يكون معه التلف بإفراط أو استهتار.

ويمنح الله الذُّرّيّة مع رحمته، فإذا هي زينة في الحياة، ومصدر فرح واستمتاع، ومضاعفة للأجر في الآخرة بالخلف الصالح الذي يذكر الله. ويمسك رحمته، فإذا الذرية بلاء ونكد، وعنت وشقاء، وسهر بالليل، وتعب بالنهار!

ويهب الله الصحة والقوة مع رحمته، فإذا هي نعمة وحياة طيبة، والتذاذ بالحياة. ويمسك نعمته فإذا الصحة والقوة بلاء يسلطه الله على الصحيح القوي، فينفق الصحة والقوة فيما يحطم الجسم، ويفسد الروح، ويدخر السوء ليوم الحساب!

ويعطي الله السلطان والجاه مع رحمته، فإذا هي أداة إصلاح، ومصدر أمن، ووسيلة لادخار الطيب الصالح من العمل والأثر. ويمسك الله رحمته فإذا الجاه والسلطان مصدر قلق على فوتهما، ومصدر طغيان وبغي بهما، ومثار حقد وموجدة على صاحبهما لا يقر له معهما قرار، ولا يستمتع بجاه ولا سلطان، ويدخر بهما للآخرة رصيدًا ضخمًا من النار!

والجماعات كالآحاد، والأمم كالأفراد في كل أمر، وفي كل وضع، وفي كل حال.. ولا يصعب القياس على هذه الأمثال! ومن رحمة الله أن تحس برحمة الله! فرحمة الله تضمك، وتغمرك، وتفيض عليك. ولكن شعورك بوجودها هو الرحمة. ورجاؤك فيها، وتطلعك إليها هو الرحمة، وثقتك بها، وتوقعها في كل أمر هو الرحمة. والعذاب هو العذاب في احتجابك عنها أو يأسك منها أو شكك فيها. وهو عذاب لا يصبه الله على مؤمن أبدًا، ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكافِرُونَ﴾[70].

ورحمة الله لا تعزّ على طالب في أي مكان ولا في أي حال. وجدها إبراهيم – عليه السّلام – في النار. ووجدها يوسف – عليه السّلام – في الجبّ كما وجدها في السجن. ووجدها يونس – عليه السّلام – في بطن الحوت في ظلمات ثلاث. ووجدها موسى – عليه السّلام – في اليمّ وهو طفل مجرد من كل قوة ومن كل حراسة، كما وجدها في قصر فرعون، وهو عدوّ له متربص به، ويبحث عنه. ووجدها أصحاب الكهف في الكهف حين افتقدوها في القصور والدور. فقال بعضهم

[70] سورة يوسف آية (87)

لبعض: «فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ». ووجدها رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم – وصاحبه في الغار والقوم يتعقبونهما ويقصون الآثار.. ووجدها كل من آوى إليها يأسًا من كل ما سواها. منقطعًا عن كل شبهة في قوة، وعن كل مظنة في رحمة، قاصدًا باب الله وحده دون الأبواب"[71].

الاهتداء: "وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ" الاهتداء إلى المخرج من المصيبة، واتقاء شرورها، والاهتداء إلى تحصيل ما يصحبها من اليسر والخير. ومن تدبّر أحوال نفسه، وأحوال كثير من الناس يدرك قدر الافتقار والاضطرار إلى الهداية عند حلول المصائب؛ لأن آثار المصائب من المخاوف والأحزان تحجب العقول والبصائر، فتضطرب الأنفس، وتختلّ الموازين، وتتخذ القرارات على عجل، وتكثر ردّة الفعل على دَهَشٍ، فيزداد البلاء والخسران.

من الدلالات اللغويّة والأصوليّة:

"أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ" "صَلَوَاتٌ" نكرة موصوفة بما بعدها: "مِنْ رَبِّهِمْ" تعظيمًا وترغيبًا، ورحمة من ربهم أيضًا، "وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ" "أل" للكمال، فلهم الهداية التامّة من ربّهم. قال الإمام الطبريّ: "يعني تعالى ذكره بقوله: "أولئك"، هؤلاء الصابرون، الذين وصفهم ونَعتهم –"عليهم"، يعني: لَهم، "صلوات"، يعني: مغفرة.

---

[71] انظر: قطب، سيد، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط: 3، 2001، ج5/2921-2924 بتصرف يسير.

"وصلوات الله" على عباده، غُفرانه لعباده"[72]. ومفهوم المخالفة كما قال العلّامة السّعديّ: "ودلت هذه الآية، على أن من لم يصبر، فله ضد ما لهم، فحصل له الذمّ من الله، والعقوبة، والضلال والخسار، فما أعظم الفرق بين الفريقين وما أقلّ تعب الصابرين، وأعظم عناء الجازعين، فقد اشتملت هاتان الآيتان على توطين النفوس على المصائب قبل وقوعها، لتخفّ وتسهل، إذا وقعت، وبيان ما تقابل به، إذا وقعت، وهو الصبر، وبيان ما يعين على الصبر، وما للصابر من الأجر، ويعلم حال غير الصابر، بضد حال الصابر. وأن هذا الابتلاء والامتحان، سنة الله التي قد خلت، ولن تجد لسنة الله تبديلا وبيان أنواع المصائب[73].

وكأين من عبدٍ يحمل في صدره جحيمًا، فلما تدبّر هذه الآيات، واستجاب لأمر ربّه، أطفأها الله تعالى، وأبدله نعيمًا.

---

[72] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج3/ 222

[73] السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، 1420هـ -2000 م، ج1/75

المطلب الخامس: قبسٌ من شعائر الله تعالى

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾[74].

حين أقف بين يدي هذه الآية أجدها تريني مشاهد زاكية من شعائر الله تعالى، فأرى فيها الحياة، وقد شدّت عليها ثياب إحرامها، طارحة لباس فتنتها وزينتها خلف ظهرها، وأسمع تلبية الملبّين تملأ جنبات قلبي، فتحملني في رحلة مديدة من تلك الساعة المباركة التي انبعثت فيها الراحلة بمحمّد عليه الصلاة والسلام مسبحًا ومكبّرًا، يؤمّ العالمين؛ ليُريهم مناسكهم رأي العين، ولما أراد عليه الصلاة والسلام أداء شعيرة السعي، "خرج من الباب إلى الصفا فلما دنا من الصفا قرأ: "إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ"، أبدأ بما بدأ الله به، فبدأ بالصفا فرقي عليه؛ حتى رأى البيت، فاستقبل القبلة، فوحّد الله، وكبّره، وقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ثم دعا بين ذلك، قال مثل هذا ثلاث مرات ثم نزل إلى المروة حتى إذا انصبّت قدماه في بطن الوادي سعى حتى إذا صعدتا، مشى حتى إذا أتى المروة، ففعل على المروة كما فعل على الصفا"[75]. ومضى في حجه، وأتمّ نسكه، وقضى تفثه، والصحابة يقتفون أثره، وقد غمرتهم الرحمات، وحلّت في ركابهم البركات، وسأوجز ما بان لي من أضواء الآية في مقامات ثلاثة:

---

[74] سورة البقرة آية (158)

[75] رواه البخاريّ ح3364.

المقـام الأوّل: بـين يـدي قـول الله تعـالى: "إِنَّ الصَّـفَا وَالْمَـرْوَةَ مِـنْ شَـعَائِرِ اللَّهِ"، فحين أجيل النظر في هـذه العبارة تتفتّح أبواب التاريخ؛ لأنفـذ إلى أعماقٍ بعيدة؛ فأشهد بداية تشكُّل صورة الشعيرة المباركة، فهاهنا امرأة مؤمنة مجاهـدة تسعى بين الصَّفا والمروة، تخطُّ بخُطاها المجهدة، وقلبها الملهوف، وأنفاس الاستغاثة، ودعوات الاضطرار سِجِلًّا من سِجِلّات الصبر المضيئة، إنها تسعى؛ لتدفع أسباب الهلاك ببقايا نبض الحياة المُحصر في صدرها، فيشكر الله تعالى سعيها، وينشر ذلك السِّجلّ للعالمين؛ ليُروى فلا يُطوى، فيجعله شعيرة من شعائره العظام، ففي الحديث الصحيح عن ابن عباس أنّه قال: "أَوَّلَ مَا اتَّخَذَ النِّسَاءُ الْمِنْطَقَ مِنْ قِبَلِ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ اتَّخَذَتْ مِنطَقًا لَتُعفِّيَ أَثَرَهَا عَلَى سَارَةَ ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ وَبِابْنِهَا إِسْمَاعِيلَ وَهْيَ تُرْضِعُهُ حَتَّى وَضَعَهُمَا عِنْدَ الْبَيْتِ عِنْدَ دَوْحَةٍ فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَى الْمَسْجِدِ وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ ، وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ وَسِقَاءً فِيهِ مَاءٌ ثُمَّ قَفَّى إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَقَالَتْ يَا إِبْرَاهِيمُ أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الْوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ ، وَلاَ شَيْءٌ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا وَجَعَلَ لاَ يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا فَقَالَتْ لَهُ آللَّهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا قَالَ نَعَمْ قَالَتْ إِذًا لاَ يُضَيِّعُنَا ثُمَّ رَجَعَتْ فَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لاَ يَرَوْنَهُ اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ الْبَيْتَ ثُمَّ دَعَا بِهَؤُلاَءِ الْكَلِمَاتِ وَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ : ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿يَشْكُرُونَ﴾، وَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تُرْضِعُ إِسْمَاعِيلَ وَتَشْرَبُ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ حَتَّى إِذَا نَفِدَ مَا فِي السِّقَاءِ عَطِشَتْ وَعَطِشَ ابْنُهَا وَجَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ يَتَلَوَّى ، أَوْ قَالَ يَتَلَبَّطُ – فَانْطَلَقَتْ كَرَاهِيَةَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ فَوَجَدَتِ

الصَّـفَا أَقْـرَبَ جَبَـلٍ فِي الأَرْضِ يَلِيهَـا فَقَامَـتْ عَلَيْـهِ ثُمَّ اسْـتَقْبَلَتِ الْـوَادِيَ تَنْظُرُ هَـلْ تَـرَى أَحَـدًا فَلَـمْ تَـرَ أَحَـدًا فَهَبَطَـتْ مِـنَ الصَّـفَا حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الْـوَادِيَ رَفَعَـتْ طَـرَفَ دِرْعِهَـا ثُمَّ سَـعَتْ سَـعْيَ الإِنْسَـانِ الْمَجْهُـودِ حَـتَّى جَـاوَزَتِ الْـوَادِيَ ثُمَّ أَتَـتِ الْمَـرْوَةَ فَقَامَـتْ عَلَيْهَـا وَنَظَـرَتْ هَـلْ تَـرَى أَحَـدًا فَلَـمْ تَـرَ أَحَـدًا فَفَعَلَـتْ ذَلِـكَ سَبْعَ مَـرَّاتٍ- قَـالَ ابْـنُ عَبَّـاسٍ قَـالَ النَّبِيُّ صـلى الله عليـه وسـلم فَـذَلِكَ سَـعْيُ النَّـاسِ بَيْنَهُمَـا - فَلَمَّـا أَشْـرَفَتْ عَلَـى الْمَـرْوَةِ سَمِعَـتْ صَـوْتًا فَقَالَـتْ صَـهٍ تُرِيـدَ نَفْسَـهَا ثُمَّ تَسَـمَّعَتْ فَسَـمِعَتْ أَيْضًـا فَقَالَـتْ قَـدْ أَسْمَعْـتَ إِنْ كَـانَ عِنْـدَكَ غِـوَاثٌ فَـإِذَا هِـيَ بِالْمَلَـكِ عِنْـدَ مَوْضِـعِ زَمْـزَمَ فَبَحَـثَ بِعَقِبِـهِ ، أَوْ قَـالَ بِجَنَاحِـهِ - حَـتَّى ظَهَـرَ الْمَـاءُ فَجَعَلَـتْ تُحَوِّضُـهُ وَتَقُـولُ بِيَـدِهَا هَكَـذَا وَجَعَلَـتْ تَغْـرِفُ مِـنَ الْمَـاءِ فِي سِـقَائِهَا وَهْـوَ يَفُـورُ بَعْـدَ مَـا تَغْـرِفُ- قَـالَ ابْـنُ عَبَّـاسٍ قَـالَ النَّـبِيُّ صـلى الله عليـه وسـلم يَـرْحَمُ اللَّهُ أُمَّ إِسْمَاعِيـلَ لَـوْ تَرَكَـتْ زَمْـزَمَ ، أَوْ قَـالَ لَـوْ لَمْ تَغْـرِفْ مِـنَ الْمَـاءِ - لَكَانَـتْ زَمْـزَمُ عَيْنًـا مَعِينًـا- قَـالَ فَشَـرِبَتْ وَأَرْضَـعَتْ وَلَـدَهَا فَقَـالَ لَهَـا الْمَلَـكُ لاَ تَخَـافُوا الضَّـيْعَةَ فَـإِنَّ هَاهُنَـا بَيْـتَ اللهِ يَبْـنِي هَـذَا الْغُـلاَمُ وَأَبُـوهُ وَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِـيعُ أَهْلَهُ"[76].

والصـلة الأصـوليّة الجامعـة بـين سـياق الآيـة وهـذا الحـديث تتجلّـى في قـول ابْـن عَبَّـاسٍ قَـالَ النَّبِيُّ صـلى الله عليـه وسـلم "فَـذَلِكَ سَـعْيُ النَّـاسِ بَيْنَهُمَـا"، فـأبان الحـديث مـا أُجملتـه الآيـة، وفي دلالـة الإشـارة فُسـحة لمـن أراد الاستنارة، فيستقصي.

[76] رواه مسلم ح3009

لقد صوّرت هذه القصّة كثيرًا من المعاني المتعلّقة بالسياق في أحسن صورة وأكمل عبرة، فالآية واردة في سياق الصبر والابتلاء والجزاء. وقد بيّنت لنا أنواع الصبر:

النوع الأول: الصبر على فعل الطاعات، فقد تلقَّت هاجرُ رضي الله عنها أمر الله تعالى بالرضا والامتثال، ولم تخالف أمر رسول الله إبراهيم عليه السلام حين تركها وحدها في أرض لا إنس فيها ولا متاع.

الأمر الثاني: الصبر على الابتلاء: فقد صبرت على ما نزل بها من الخوف والوحشة، وفراق الأنيس، ونقص المؤنة، والجوع، والعطش؛ حتى أشرف ابنها على الهلاك.

الأمر الثالث: الصبر عمّا يغضب الله، فلم تتكلُّم بما يدلّ على الندم ولم تتسخَّط ممّا حلّ بها.

الأمر الرابع: الصبر على دفع البلاء (أقدار الضّر) بأقدار الله تعالى؛ لأن السعي في دفع الابتلاء وأذى الأعداء حتى آخر نَفَس من أعظم القربات. وإفراد الصبر على مشقّة السعي في دفع البلاء بالذكر نافع، وإن كان مندرجًا في الصبر على فعل الطاعات، فالصبر يدفع أهله إلى اتقاء الأقدار بالأقدار، وإزالة الأضرار بالمصابرة والإصرار. فما أجمل الصبر حين يكون مقرونًا بالسَّعي في طلب الأسباب المنجية من غير سخطٍ ولا تشكٍّ. وقد علّمتنا القصّة أنّ معيّة الله تعالى للصابرين لا تعني الحصانة من الابتلاء، بل أشدّ الناس بلاء الأنبياء، ثمّ الأمثل فالأمثل. والابتلاء يقوّي الضعفاء، فليستبشر الصابرون، فإن الله مع الصابرين، "وَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَهْلَهُ".

ولقد أجزل الله تعالى عطاءه لهاجر أمّ إسماعيل وجدّة خاتم المرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين، وجدة الطيبين الطاهرين من قريش، وفي ذكرها أسوة حسنة للعالمين، لعظيم إسهامها في رعاية إسماعيل، وتهيئته لوراثة أبيه عليه السلام، وعمارة البلد الحرام، ولا تزال الذريّة المباركة قائمة بالطاعات والمكارم.

المقام الثاني: بين يدي قول الله تعالى: "فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا"، ها هي الآية تعود إلي لتحملني، فترقّى بي في الآفاق، وقد تضلّعت من ذكريات زمزم، ومن السبح الطويل في ظلال الصبر الجميل؛ إنها تريني –بأداة الشرط الدالّة على العموم– تلك الوفود الكريمة القادمة من مشارق الأرض ومغاربها عبر القرون، وقد ولّت وجهها تلقاء بيت الله تعالى، تهتز جنبات الأرض مُلبيّة معها: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، وتوالت الوفود من كلّ فجّ عميق شاخصة إلى البيت العتيق، يقطعون البراري، والغابات، والقفار، والبحار، والأنهار، ولا يزال رجال مؤمنون ونساء مؤمنات تجري بهم الأقدار حجّاجًا وعُمّارًا، وقلوبهم معلّقة بالبلد الحرام، أكاد أحسّ بتلك القلوب، والأشواق تحلّق بها غير عابئة بما يكتنف طريقها من المكاره والأهوال، فيُنجّي الله تعالى من يشاء، ليبلغوا حاجة في صدورهم، وليشهدوا منافع لهم، وليطّوفوا بالبيت العتيق، ليعودوا كيوم ولدتهم أمّهاتهم تطير بهم أجنحة الأمانيّ إلى ديارهم.

ولَمّا قضينا من مِنىً كلَّ حاجةٍ ومَسَّحَ بالأركانِ مَن هو ماسحُ
وشُدّتْ على حُدْبِ المَطايا رِحالُنا ولم يعرف الغادي الذي هو رائحُ

أخذْنا بأطرافِ الأحاديثِ بيننا   وسالتْ بأعناقِ المَطيِّ الأباطحُ

ومنهم من قضى نحبَه صابرًا راضيًا أشعث أغبر لم يقضِ تفثه؛ ليبعث على هيئته مُلبِّيًا، فما أشبه مجيب داعي اليقين في الحجّ بشهيد المعركة! ولو ذهبت تحصي الشدائد والمهالك التي تعرض لها المسلمون في الحجّ والعمرة، لأعياك الأمر، ولَعَلِمْتَ أن الصبر على أداء الحجّ والعمرة من أعظم الصبر. والحجّ جهاد لا شوكة فيه! فكان ورود شعيرة السعي بين الصفا والمروة في سياق آيات الصبر مناسبًا ومحقّقًا لمقاصد الأمر بالحجّ والعمرة.

المقام الثالث: بين يدي قول الله تعالى: "وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ"، تنقلب نار الهموم والمخاوف بين يدي هذين الاسمين الكريمين بردًا وسلامًا، وتمتلئ القلوب رضًا وسكينة، فتزداد النفوس عزمًا على السباق، والمنافسة ببذل المُهج وكرائم الأموال، والمثابرة، وخوض غمار المغامرات في حقول الفرص العليّة، ورفيع الدرجات.

وفي تقديم اسم الشاكر على العليم تعجيل المسرّة للمطيعين، فالشاكر يجزي على القليل كثيرًا، ويعفو عن التقصير، وما تنفقوا من شيء فهو يخلفه بخير منه، ويزيدكم من فضله، فيُذهب عنكم الخوف والحزن، ثمّ ألحقه بصفة "العليم"، ولهذا الاسم العظيم في سياق التكريم شأن عظيم، فهو عليم بكلّ ما بذلتموه، وما تفتقرون إليه ظاهرًا وباطنًا، وما يصلح شأنكم ويسعدكم عاجلًا وآجلًا، فيكرمكم فيعجّل لكم ويدّخر بما تحبون وبخير ممّا ترجون، ويدفع عنكم ما تكرهون.

من الدلالات اللغويّة والأصوليّة:

"إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ" قال الإمام الطبريّ: "والصفا جمع صَفاة، وهي الصخرة الملساء، وأما المروة، فإنها الحصاةُ الصغيرة، والصفا والمروة في هذا الموضع: الجبلان المسمَّيَان بهذين الاسمين اللذين في حَرَمه، دون سائر الصفا والمروة، وأما قوله تعالى: "مِنْ شَعائر الله"، فإنه يعني: من معالم الله التي جعلها تعالى ذكره لعباده مَعلمًا ومَشعَرًا يعبدونه عندها، إما بالدعاء، وإما بالذكر، وإما بأداء ما فرض عليهم من العمل عندها"[77]. "فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا" "من" شرطية عامّة، "حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ" أدّى عبادة الحجّ أو العمرة، وهما العبادات المعروفتان، وأصل الحجّ العودة إلى الشيء وكثرة التردّد عليه لاهتمامه به، والعمرة في اللغة الزيارة والقصد، "فَلَا جُنَاحَ" نكرة في سياق لا النافية للجنس نصّ في العموم، "أَنْ يَطَّوَّفَ" المصدر المؤول يعمّ كل طواف، والمراد الطواف الذي بيّنته السنّة، وقد ورد الأمر بالسعي بهذه الصيغة التي ظاهرها الجواز والترخيص؛ لأن الآية نزلت وكانت مكّة بيد المشركين وكان على الفا صنم وعلى المروة صنم، فتحرّج المسلمون من الطواف بهما، قال الإمام الطبريّ: "فمن حَج البيتَ أو اعتمر" فلا يتخوَّفنَّ الطواف بهما، من أجل ما كانَ أهل الجاهلية يطوفون بهما من أجل الصنمين اللذين كانا عليهما، فإن أهل الشرك كانوا يطوفون بهما كفرًا، وأنتم تَطوفون بهما إيمانًا، وتصديقًا لرسولي، وطاعةً لأمري، فلا جُناح عليكم في الطواف بهما"[78]. "وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ" "من" شرطية عامّة، "تَطَوَّعَ" فعله طاعة لله تعالى، وظاهر اللفظ يدلّ على الندب، لا الوجوب. ولكن ورد في

[77] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج3/ 224 -226 بتصرف يسير

[78] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج3/ 231

السنّة قوله عليه الصلاة والسلام: "اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي"، قال العلّامة ابن حجر: "أخرجه الشافعي وأحمد وغيرهما وفي إسناد هذا الحديث عبد الله بن المؤمل وفيه ضعف، ومن ثم قال بن المنذر: إن ثبت فهو حجة في الوجوب قلت له طريق أخرى في صحيح بن خزيمة مختصرة وعند الطبراني عن بن عباس كالأولى، وإذا انضمت إلى الأولى قويت، والعمدة في الوجوب قوله صلى الله عليه وسلم: "خذوا عني مناسككم"، واختلف أهل العلم في هذا، فالجمهور قالوا هو ركن لا يتمّ الحج بدونه وعن أبي حنيفة واجب"[79].

[79] ابن حجر، أحمد العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاريّ، دار المعرفة - بيروت، 1379، ج3/ 498 بتصرف يسير

الخاتمة

الحمد لله ربّ العالمين الذي بنعمته تتمّ الصالحات والصلاة والسلام على سيدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين. الصبر... الصبر والرباط الرباط على ثغور الإسلام، قال الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[80].

جعلني الله تعالى وإيّاكم ممّن اختصّهم بتعلُّم القرآن الكريم، وتعليمه، وفهمه وتدبُّره، والاهتداء بهديه، والدعوة إليه. وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

[80] سورة آل عمران آية (200)